قصة بقرة بني إسرائيل ومسألة إحياء الميت

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا ۖ وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَـْٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ البقرة: ٦٧-٧٣ .

أما تفسيرها بحسب:

*** ابن كثير:**

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾

يقول تعالى: واذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم في خرق العادة لكم في شأن البقرة، وبيان القاتل من هو بسببها، وإحياء الله المقتول ونصه على من قتله منهم.

عن عبيدة السلماني، قال: كان رجل من بني إسرائيل عقيماً لا يولد له، وكان له مال كثير، وكان ابن أخيه وارثه، فقتله ثم احتمله ليلاً فوضعه على باب رجل منهم،

ثم أصبح يدعيه عليهم حتى تسلحوا وركب بعضهم على بعض، فقال ذوو الرأي منهم والنُّهَى: علام يقتل بعضكم بعضاً وهذا رسول الله فيكم؟ فأتوا موسى (ع) فذكروا ذلك له، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾. قال: فلو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة ولكنهم شدّدوا فشدّد عليهم حتى انتهوا إلى البقرة التي أُمروا بذبحها فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها، فقال: والله لا أنقصها من ملء جلدها ذهباً، فأخذوها بملء جلدها ذهباً فذبحوها فضربوه ببعضها فقام، فقالوا: من قتلك؟ فقال: هذا ـ لابن أخيه ـ ثم مال ميتاً فلم يعط من ماله شيئاً فلم يورث قاتل بعد.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ﴾ يعني لا هرمة، ﴿بِكۡرٞ﴾ يعني ولا صغيرة، ﴿عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ﴾ أي نصَفٌ بين البكر والهرمة. ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾

أي: صاف لونها، ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ أي تعجب الناظرين، ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَاۖ وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ٧٠ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ﴾ أي لم يذللها العمل، ﴿تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ﴾ يعني وليست بذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث يعني ولا تعمل في الحرث ﴿مُسَلَّمَةٞ﴾ يعني مسلّمة من العيوب ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ يقول لا بياض فيها ﴿قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾. ولو أن القوم حين أُمروا بذبح بقرة، استعرضوا بقرة من البقر فذبحوها لكانت إياها، ولكن شدّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم، ولولا أن القوم استثنوا فقالوا: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ﴾ لما هُدوا إليها أبداً.

وقال السّدي ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗ﴾

قال: كان رجل من بني إسرائيل مكثراً من المال فكانت له ابنة وكان له ابن أخ محتاج فخطب إليه ابن أخيه ابنته فأبى أن يزوجه، فغضب الفتى وقال والله لأقتلن عمي ولآخذن ماله، ولأنكحن ابنته ولآكلن ديّته، فأتاه الفتى ـ وقد قدم تجار في بعض أسباط بني إسرائيل ـ فقال: يا عم انطلِق معي فخذ لي من تجارة هؤلاء

القوم لعلّي أن أصيب منها فإنهم إذا رأوك معي أعطوني، فخرج العم مع الفتى ليلاً، فلما بلغ الشيخ ذلك السبط قتله الفتى ثم رجع إلى أهله، فلما أصبح جاء كأنه يطلب عمّه كأنه لا يدري أين هو فلم يجده، فانطلق نحوه، فإذا هو بذلك السبط محتمعين عليهم فأخذهم، وقال: قتلتم عمي فأدّوا إليّ ديّته، فجعل يبكي ويحثو التراب على رأسه وينادي: واعمّاه، فرفعهم إلى موسى فقضى عليهم بالدية. فقالوا له: يا رسول الله ادع لنا ربك حتى يبين لنا من صاحبه فيؤخذ صاحب القضية، فوالله إن ديته علينا لهيّنة، ولكن نستحيي أن نعيّر به فذلك حين يقول تعالى: ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾، فقال لهم موسى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾، قالوا: نسألك عن القتيل وعمن قتله وتقول اذبحوا بقرة أتهزأ بنا؟ ﴿ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾. قال ابن عباس: فلو لم يعترضوا وذبحوها لأجزأت عنهم، ولكنْ شدّدوا وتعنّتوا على موسى فشدّد الله عليهم. والفارض الهرمة التي لا تولد، والبكر التي لم تلد إلاَّ ولداً واحداً، والعَوَان النْصَفُ التي بين ذلك التي قد ولدت وولد ولدها ﴿ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾ قال نقي لونها ﴿ تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾ قال تعجب الناظرين ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ ﴾ من بياض ولا سواد ولا حمرة ﴿ الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾ فطلبوها ـ من صاحبها ـ وأعطوا وزنها ذهباً فأبى فأضعفوه له حتى أعطوه وزنها عشر مرات ذهباً فباعهم إيّاها وأخذ ثمنها فذبحوها، قال: اضربوه ببعضها فضربوه بالبضعة التي بين الكتفين فعاش فسألوه مَن قتلك فقال لهم ابن أخي قال: أقتله فآخذ ماله وأنكح ابنته، فأخذوا الغلام فقتلوه.

﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ

إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾.

أخبر تعالى عن تعنت بني إسرائيل وكثرة سؤالهم لرسولهم ولهذا لما ضيقوا على أنفسهم ضيق الله عليهم ولو أنهم ذبحوا أيّ بقرة كانت لوقعت الموقع عنهم ولكنهم شدّدوا فشدّد عليهم فقالوا: ﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ﴾ أي: ما هذه البقرة؟ وأي شيء صفتها؟ قال ابن جرير عن ابن عباس: (لو أخذوا أدنى بقرة لاكتفوا بها ولكنهم شدّدوا فشدّد عليهم) قال: ﴿ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ ﴾ أي: لا كبيرة هرمة ولا صغيرة لم يلحقها الفحل. وقال الضحّاك عن ابن عباس: ﴿ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ يقول نَصَفٌ بين الكبيرة والصغيرة، وهي أقوى ما يكون من الدواب والبقر وأحسن ما تكون. وقال سعيد بن جبير: ﴿ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا ﴾ صافية اللون. وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا ﴾ شديدة الصفرة تكاد من صفرتها تبيض، وقال السدي: ﴿ تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴾ أي تعجب الناظرين. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا ﴾ أي لكثرتها فميز لنا هذه البقرة وصفها وحلها لنا ﴿ وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ إليها. عن أبي هريرة قال: قال رسول الله (ص): ((لولا أن بني إسرائيل قالوا ﴿ وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ لما أعطوا ولكن استثنوا)). ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ ﴾ أي: إنها ليست مذللة بالحراثة، ولا معدة للسقي في السانية، بل هي مكرمة حسنة صبيحة مسلّمة صحيحة لا عيب فيها ﴿ لَّا شِيَةَ فِيهَا ﴾ أي: ليس فيها لون غير لونها وقال قتادة ﴿ مُسَلَّمَةٌ ﴾ يقول: لا عيب فيها ﴿ لَّا شِيَةَ فِيهَا ﴾ لونها واحد بهيم قاله عطاء. ﴿ قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ﴾ قال قتادة: الآن بينت لنا، ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس: كادوا أن لا يفعلوا ـ ولم يكن ذلك الذي أرادوا ـ لأنهم أرادوا أن لا يذبحوها، يعني أنهم مع هذا البيان وهذه الأسئلة والأجوبة والإيضاح ما ذبحوها

إلاَّ بعد الجهد، وفي هذا ذم لهم وذلك أنه لم يكن غرضهم إلاَّ التعنت فلهذا ما كادوا يذبحونها. قال ابن جرير: لم يكادوا أن يفعلوا ذلك خوف الفضيحة إن اطلع الله على قاتل القتيل الذي اختصموا فيه ثم اختار أن الصواب في ذلك أنهم لم يكادوا يفعلوا ذلك لغلاء ثمنها وللفضيحة.

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣) ﴾.

قال البخاري: ﴿ فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ﴾ اختلفتم وهكذا قال مجاهد، ﴿ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ قال مجاهد: ما تغيبون. عن المسيب بن رافع: ((ما عمل رجل حسنة في سبعة أبيات إلا أظهرها الله وما عمل رجل سيئة في سبعة أبيات إلاَّ أظهرها الله))، وتصديق ذلك في كلام الله: ﴿ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾ هذا البعض أي شيء كان من أعضاء هذه البقرة، فالمعجزة حاصلة به وخرق العادة به كائن، فلو كان في تعيينه لنا فائدة تعود علينا في أمر الدين أو الدنيا لبيّنه الله تعالى لنا، ولكنه أبهمه ولم يجئ من طريق صحيح عن معصوم بيانه فنحن نُبهمه كما أبهمه الله.

وقوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ ﴾ اي: فضربوه فحيي، ونبّه تعالى على قدرته وإحيائه الموتى بما شاهدوه من أمر القتيل، جعل تبارك وتعالى ذلك الصنيع حجة لهم على المعاد، وفاصلاً ما كان بينهم من الخصومة والعناد، والله تعالى قد ذكر في هذه السورة ممّا خلقه من إحياء الموتى في خمسة مواضع: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴾البقرة: ٥٦ ، وهذه القصة، وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، وقصة الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها، وقصة إبراهيم (ع) والطيور الأربعة، ونبّه تعالى بإحياء الأرض بعد موتها على إعادة الأجسام بعد صيرورتها رميماً، كما قال أبو رزين العقيلي، قال: قلت يا رسول الله (ص): كيف يحيي الله الموتى؟ قال (ص): ((أما مررت بوادٍ ممحل ثم مرّرت به خضراً))؟ قال:

بلى، قال (ص): ((كذلك النشور))، أو قال: ((كذلك يحيي الله الموتى)) وشاهد هذا قوله تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ يس: ٣٣ .

* الشيخ مغنية:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَـْٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ البقرة: ٦٧-٧٣ .

اللغة: الفارض المُسنة التي انقطعت ولادتها، والبكر الصغيرة التي لم تحمل، والعوان وسط بينهما، لا كبيرة ولا صغيرة، والفاقع شديد الصفرة، يقال أصفر فاقع، وأخضر ناضر، وأحمر قان، وأبيض ناصع ويقف، وأسود حالك، وكلها صفات مبالغة في الألوان، كما في مجمع البيان والذلول الريّض الذي زالت صعوبته، والمراد بالذلول هنا البقرة التي لم تعتد العمل في الأرض والمسلّمة بتشديد اللام السالمة من العيوب، والشبه بكسر الشين العلامة، والمراد بها هنا أن يكون لون البقرة واحداً لا لون يخالف الصفرة، وهو مأخوذ من وشي الثوب إذا زيّن بخطوط مختلفة. واصل ادارأتم على وزن تفاعلتم، ومعنى التّدارؤ التدافع، أي كان البعض يدفع خصمه بيده، وخصمه يفعل به مثل فعله، أو أن كلاً يتهم الآخر بدم القتيل.

الإعراب: ما هي مبتدأ وخبر، والجملة مفعول يبين، لا فارض صفة للبقرة،

والصفة إذا كانت منفية بلا وجب تكرارها، فلا يجوز أن تقول: مررت برجل لا كريم وتسكت، بل لا بد أن تعطف عليه ولا شجاع، وما أشبه، وعوان خبر لمبتدأ محذوف، أي هي عوان وفاقع صفة للبقرة، ولونها فاعل لفاقع.

ملخص القصة: إن هذه الآيات الكريمة يتوقف فهمها على معرفة الحادثة التي نزلت الآيات من أجلها، وخلاصة هذه الحادثة: أن شيخاً غنياً من بني إسرائيل قتله بنو عمه طمعاً في ميراثه ثم ادعى القتلة على أناس أبرياء أنهم قتلوه، وطالبوهم بديته، ليدفعوا عنهم تهمة القتل، فوقع الاختلاف بينهم والشجار، فترافعوا إلى موسى (ع)، وحيث لا بيّنة تكشف عن الواقع سألوا موسى ـ كالمعتاد ـ أن يدعو الله ليبين لهم ما خفي من أمر القاتل، فأوحى الله إليه أن يذبحوا بقرة، ويضربوا القتيل ببعضها، فيحيا، ويخبر بقاتله، وبعد أخذ ورد، وأن الأمر: هل هو هزل أو جد، وبعد السؤال عن أوصاف البقرة أولاً وثانياً وثالثاً فعلوا، وعاد القتيل إلى الحياة وأخبر بما كان.

المعنى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾: أي نسألك عن أمر القتيل، فتأمرنا بذبح البقرة؟ إن هذا هزؤ وليس بجد.

﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾: أي أني لا أستعمل الهُزء والسخرية في غير التبليغ عن الله، فكيف في التبليغ عنه جلت كلمته؟ وكان يجزيهم أن يذبحوا بقرة أية بقرة، لأن المأمور به بقرة مطلقة والإطلاق يفيد الشمول، ولكنهم ﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ﴾. قال: هي من حيث السن وسط، لا بالكبيرة، ولا بالصغيرة، فاذهبوا، وامتثلوا ولا تتوانوا في ذبحها. ولكنهم عادوا ثانية إلى التنطح والسؤال ﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾. قال: هي صفراء. ولكنهم زادوا في الإلحاح، وإعادة السؤال ثالثاً، لأن البقر في هذا اللون والسن كثير.. قال: هي سائمة لا عاملة، وسالمة لا معيبة.. فطلبوها حتى وجدوها، وذبحوها وضربوا الميت ببعضها، فعاد إلى الحياة، وانكشف السر بعد أن أخبر عن قاتله.

﴿كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾: أي إن إحياءنا لهذا

القتيل شاهد عيان، وبرهان حسي على البعث بعد الموت، لأن من قدر على إحياء نفس واحدة قدر على إحياء الأنفس كلها، لعدم الاختصاص، فهل بعد هذا الشاهد الحسي العياني تنكرون وتشكّكون وتعصون؟ أجل برغم ذلك وغير ذلك قست قلوبهم، بل كانت أشد قساوة وصلابة من الحجارة كما نطقت الآية التالية.

وبعد الذي بيّناه في تفسير قوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ ﴾ لا يبقى أي مجال للتساؤل: لماذا لم يحيي الله القتيل ابتداء، وهو القادر على كل شيء؟ وكيف يحيا الميت إذا ضرب بجزء البقرة؟ ولماذا كانت هذه البقرة دون غيرها؟ ثم ما هي الفائدة من ضرب المقتول ببعضها؟ كل هذه التساؤلات وما إليها لا تتجه بحال بعد أن أثبتنا أن الله عامل أولئك الإسرائيليين معاملة خاصة دون الناس أجمعين، وأنه من هذه الجهة فضلهم على الناس أجمعين.

***سيد قطب:**

ففي هذه القصة القصيرة مجال للنظر في جوانب شتى: ١ ـ جانب دلالتها على طبيعته بني إسرائيل وجبلتهم الموروثة.

٢ ـ جانب دلالتها على قدرة الخالق، وحقيقة البعث، وطبيعة الموت والحياة.

٣ ـ جانب الأداء الفني في عرض القصة بدءاً ونهاية واتساقاً مع السياق.

إن السِمات الرئيسية لطبيعة إسرائيل تبدو واضحة في قصة البقرة: بيان انقطاع الصلة بين قلوبهم، انقطاع الصلة مع ذلك النبع، نبع الإيمان بالغيب، والثقة بالله، والاستعداد لتصديق ما يأتيهم به الرسل، ثم التلكؤ في الاستجابة للتكاليف، وتلمس الحجج والمعاذير والسخرية المنبعثة من ضفاف القلب وسلاطة اللسان!

فقد كان أمر النبي لهم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗ ﴾ بصيغة يكفي فيها الاستجابة والتنفيذ، ذلك أن نبيهم هو زعيمهم الذي أنقذهم من العذاب المُهين، برحمةٍ من الله ورعاية وتعليم، وهو ينبئهم أن هذا ليس أمره وليس رأيه، إنّما هو أمر الله، الذي يسير بهم على هداه، فماذا كان الجواب؟ لقد كان جوابهم سفاهة

وسوء أدب، واتهاماً لنبيهم الكريم بأنه يهزأ بهم ويسخر منهم! كأنما يجوز لإنسان يعرف الله أن يتخّذ اسم الله وأمره مادة مزاح وسخرية بين الناس.

﴿ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ وكان رد موسى (ع) على هذه السفاهة أن يستعيذ بالله وأن يردهم برفق، وعن طريق التعريض والتلميح، إلى جادة الأدب الواجب في جانب الخالق وأن يُبيّن لهم أن ما ظنوه به لا يليق إلاّ بجاهل بقدر الله، لا يعرف ذلك الأدب ولا يتوخاه.

﴿ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾

وكان هذا التوجيه كفاية ليتوبوا إلى أنفسهم ويرجعوا إلى ربهم، وينفّذوا أمر نبيهم. ولكنها إسرائيل! لقد كان بوسعهم أن يمدوا أيديهم إلى أية بقرة فذبحوها، فإذا هم مطيعون لأمر الله، منفذون لإشارة رسوله.

ولكن طبيعة التلكؤ والإلتواء تُدركهم، فإذا هم يسألون: ﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ﴾

والسؤال بهذه الصيغة يشي بأنهم ما يزالون في شكّهم أن يكون موسى (ع) هازئاً فيما أنهى إليهم! فهم أولاً: يقولون: ﴿ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾. فكأنما هو ربه وحده لا ربهم، وكأن المسألة لا تعنيهم هم إنما تعني موسى وربه! وهم ثانياً: يطلبون منه أن يدعو ربه ليبيّن لهم: ﴿ مَا هِىَ ﴾ والسؤال عن الماهية في هذا المقام يتضمن معنى الإنكار والاستهزاء.. ما هي؟! إنّها بقرة وقد قال لهم هذا من أول الأمر بلا تحديد لصفة ولا سمة بقرة وكفى!

وكان جواب موسى (ع) لهم: ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾

بمعنى أنها بقرة لا هي عجوز ولا هي شابة، وسط بين هذا وذاك، ثم يعقب على هذا البيان المجمل بنصيحة آمرة حازمة: ﴿ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴾.

وكان ذلك كافياً لمن يُريد الكفاية، وكان حسبهم وقد ردّهم نبيهم إلى الجادّة مرتين، وملح لهم بالأدب الواجب في السؤال وفي التلقي. بأن يعمدوا إلى أيّة بقرة

من أبقارهم، لا عجوز ولا صغيرة، متوسطة السن فيخلّصوا بها ذمتهم، وينفذوا بذبحها أمر ربهم، ويعفوا أنفسهم من مشقّة التعقيد والتضييق... ولكن إسرائيل هي إسرائيل!

واستمروا بالسؤال: ﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ﴾

هكذا مرة أخرى: ﴿ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ ولم يكن بد أن يأتيهم الجواب بالتفصيل:

﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴾

وهكذا ضيقوا على أنفسهم دائرة الاختيار؛ فأصبحوا مكلفين أن يبحثوا لا عن بقرة.. مجرد بقرة، بل عن بقرة متوسطة السنّ، لا عجوز، ولا صغيرة، وهي بعد هذا صفراء فاقع لونها، وهي ليست هزيلة ولا شوهاء: ﴿ تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴾. وسرور الناظرين لا يتمّ إلاّ أن تقع أبصارهم على مراهة وحيوية ونشاط والمتاع في تلك البقرة المطلوبة، فهذا هو الشائع في طباع الناس: أن يُعجبوا بالحيوية والاستواء ويسروا، وأن ينفّروا من الهزل والتشويه ويشمئزوا.

ولقد كان فيما تلكأوا كفاية، ولكنّهم يمضون في طريقهم، يعقدون الأمور، ويشددون على أنفسهم فيشدّد الله عليهم لقد عادوا مرة أخرى يسألون عن الماهية:

﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا ﴾ وكأنما استشعروا لجاجتهم هذه المرة فهم يقولون: ﴿ وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾.

ولم يكن بد كذلك أن يزيد الأمر عليهم مشقّة وتعقيداً، وأن تزيد دائرة الاختيار المتاحة لهم حصراً وضيقاً بإضافة أوصاف جديدة للبقرة المطلوبة وكانوا في سعة منها وفي غنى عنها: ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ﴾ وهكذا لم تعد بقرة متوسطة العمر، صفراء فاقع لونها فارهة فحسب. بل لم يعد بد أن تكون بقرة غير مذللة ولا مدربة على حرث الأرض أو سقي الزرع، وأن تكون كذلك خالصة اللون لا تشد بها علامة.

هنا فقط... وبعد أن تعقد الأمر، وتضاعفت الشروط، وضاق مجال الاختيار:

﴿قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ الآن! ويعد تنفيذ الأمر والنهوض بالتكليف كشف الله لهم عن الغاية من الأمر والتكليف: ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣) ﴾.

وفي جانب دلالتها على قدرة الخالق، وحقيقة البعث، وطبيعة الموت والحياة، وهنا يتغيّر السياق في الحكاية إلى الخطاب والمواجهة.

لقد كشف الله لقوم موسى عن الحكمة من ذبح البقرة لقد كانوا قد قتلوا نفساً منهم، ثم جعل كل فريق يدرأ عن نفسه التهمة ويلحقها بسواه، ولم يكن هناك شاهد، فأراد الله أن يظهر الحق على لسان القتيل ذاته، وكان ذبح البقرة وسيلة إلى إحيائه، وذلك بضربه ببعض من تلك البقرة الذبيحة.. وهكذا كان، فعادت إليه الحياة، ليخبر بنفسه عن قاتله، وليجلو الريب والشكوك التي أحاطت بمقتله، وليحق الحق ويبطل الباطل بأوثق البراهين.

وهنا يرد السؤال: لماذا كانت هذه الوسيلة والله قادر على أن يحيي الموتى بلا وسيلة، ثم ما مناسبة البقرة المذبوحة مع القتيل المبعوث؟

إن البقر يُذبح قُرباناً كما كانت عادة بني إسرائيل.. وبضعة من جسد ذبيح ترد بها الحياة إلى جسد قتيل وما في هذه البضعة حياة ولا قدرة على الإحياء.. إنّما هي مُجرد وسيلة ظاهرة تكشف لهم عن قدرة الله التي لا تعرف البشر كيف تعمل. فهم يشاهدون آثارها ولا يدركون كُنهها ولا طريقتها في العمل: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى ﴾ كذلك بمثل هذا الذي ترونه واقعاً ولا تردون كيف ومع وبمثل هذا اليُسر الذي لا مشقة فيه ولا عسر.

إنّ المسافة بين طبيعة الموت وطبيعة الحياة مسافة هائلة تدبر الرؤوس، ولكنها في حساب القدرة الإلهية أمرٌ يسير... كيف؟ هذا ما لا أحد يدريه.. إن إدراك الماهية والكيفية هنا سرّ من أسرار الألوهية، لا سبيل إليه في عالم الفانين! وإن يكن في طوق العقل البشري إدراك دلالته والاتعاظ بها: ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

وأخيراً نجيء إلى جمال الأداء وتناسقه مع السياق...

هذه قصة قصيرة نبدؤها، فإذا نحن أمام مجهول لا نعرف ما وراءه، ولا نعرف مبدأ عرض القصة لماذا يأمر الله بني إسرائيل أن يذبحوا بقرة، كما أنّ بني إسرائيل إذ ذاك لم يعرفوا وفي هذا اختيار لمدى الطاعة والاستجابة والتسليم.

ثم يتابع الحوار في عرض القصة بين موسى وقومه، فلا نرى الحوار ينقطع ليُثبّت ما دار بين موسى وربه، على حين أنّهم كانوا في كل مرّة يطلبون منه أن يسأل ربه، فكان يسأله ثم يعود إليهم بالجواب... ولكن سياق القصة لا يقول: إنه سأل ربه ولا إن ربه أجابه إن السكوت هو اللائق بعظمة الله، التي لا يجوز أن تكون في طريق اللجاجة التي يزاولها بنو إسرائيل!

ثم تنتهي إلى المباغتة في الخاتمة، انتفاض الميت مبعوثاً ناطقاً، على ضربة من بعض جسد بقرة بكماء مذبوحة، ليس فيها من حياة ولا مادة حياة!

والخاتمة كانت: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾

*** السيد فضل اللّه:**

معاني المفردات:

﴿ هُزُوًا ﴾: سخرية.

﴿ فَارِضٌ ﴾: الفارض: المسنّة التي انقطعت ولادتها.

﴿ بِكْرٌ ﴾: صغيرة لم تحمل بعد.

﴿ عَوَانٌ ﴾: وسط.

﴿ فَاقِعٌ ﴾: شديد الصفرة.

﴿ ذَلُولٌ ﴾: الذلول: الريض الذي زالت صعوبته، والمراد هنا بقوله (لا ذلول) البقرة التي لم تعتد العمل في الأرض.

﴿ مُسَلَّمَةٌ ﴾: خالية من العيوب.

﴿ شِيَةَ ﴾: علامة.

﴿فَٱدَّٰرَءۡتُمۡ﴾: أصلها تدارأتم على وزن تفاعلتم، ومعنى التدارؤ التدافع.

﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ﴾

اذبحوا أية بقرة، فكان الاستغراب، لأن مِثل هذا الأمر لا يخضع لأية مناسبة تتصل بحياتنا في أوضاعنا الخاصة والعامة، فليس المورد مورد قربان نقدمه إلى الله في مناسباته الخاصة لنعتبرها قرباناً له، وليس المقام مقام دعوة للإطعام لنقدم لحمها للآكلين الفقراء، وليس هناك شيء آخر يدخل في دائرة التصوّر الواقعي المعقول. وكان جواب موسى (ع) في مستوى المدلول السيئ لردود قومه عليه.

﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ فقد استعاذ بالله أن يكون من الجاهلين، لأنّ مثل هذا التصرف يجعل موسى في موقف الجاهل الذي لا يعرف كيف يتصرّف وأين يضع كلماته ولا يعقل مركز النبوة ومنطلقاتها العملية، كما أنه لا يمكن أن يحدثّهم عن الله بما لم ينزل عليه وممّا لم يأمرهم به، لأن ذلك يعتبر خيانة من الرسول وكذباً على الله، وكيف يمكن أن يسخر موسى النبي بالناس الذين جاء لهدايتهم وربطهم بالجانب الجدي في مواقع المسؤولية في الحياة، لا سيما إذا كانت المسألة مرتبطة بالعمل الذي يكلفهم الكثير من الجهد والمال والتعقيدات الاجتماعية، وعادوا من جديد إلى المشاغبة، ولكن من موقع اتهامه بأنه يحمل أمراً مبهماً لا وضوح فيه فسألوه عن حقيقة البقرة، وقد كان بإمكانهم أن يأخذوا بإطلاق الكلمة في مقام البيان.

﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ﴾ وبدأ الموقف يتجه اتجاهاً آخر يُشبه العقوبة ومواجهة التحدّي بمثله، فتحوّل الجواب إلى التضيّيق عليهم بفرض قيود لم تكن داخلة في حساب التشريع في ذاته.

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ﴾أي أنّها بقرة لا هرمة ولا صغيرة وسط بين ذلك، وهي أقوى ما يكون.

﴿فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ﴾استجيبوا لهذا الأمر الإلهي في حدوده الجديدة، ممّا

يعني أن القضية لا تحتاج إلى سؤال فكان بإمكانهم أن يكتفوا بما ذكر لأنه لم يذكر لهم زيادة في التفاصيل، وإن سكتوا عما سكت الله عنه، لأن الله لا يحاسب العباد إلا على ما يُبيّنه لهم، فلا عقاب بلا بيان.

ولكنهم لم يكتفوا بذلك، بل عادوا يثيرون كل ما يتصورونه من خصائص البقر ممّا يُمكن أن يقع موضعاً للسؤال.

﴿ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَا ﴾ لأن ألوان البقرة تتعدّد، فهل يفرض علينا الله لوناً معيناً لنلتزم به. وجاء الجواب الثاني ليحدّد ويضيف، رداً على هذا الفضول الذي لا معنى له.

﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴾

وعاد السؤال من جديد، فهم لا يعرفون كيف يحصلون عليها لأن أنواع البقر تتشابه، فلا يملكون الحصول على المطلوب المحدّد فطلبوا الصفات التي يمكن أن يجدوها بسهولة.

﴿ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَاۖ ﴾

في خصائصها وصفاتها الواضحة التي تجعلها أكثر وضوحاً وكأنهم شعروا بأنهم قد ذهبوا بعيداً في هذا المجال، فابتعدوا عن الخط في هذا الإلحاح الفضولي الذي لا يتناسب مع موقفهم من النبي كما لا ينسجم مع طبيعة المسؤولية، فوعدوه بأنّهم سيسلكون طريق الهدى في نهاية المطاف.

﴿ وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ﴾ بالهدى الذي ترشدنا إليه في حدود المسؤولية المتصلة بالواقع العملي للطاعة في انقيادنا لأوامر الله.

وجاء الجواب أكثر تحديداً وتضييقاً: ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَا ﴾ بمعنى أنه لم يُذلّلها العمل بإثارة الأرض بأظلافها، ولا يُستقى عليها الماء للزرع، سالمة من العيوب، لا علامات فيها تخالف لون جلدها.

﴿ قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّ ﴾

فإن هذه الأوصاف المتعدّدة تضعنا في موقع الوضوح الذي لا مجال فيه للحيرة والاشتباه. ولم يملكوا سؤالاً جديداً.

﴿ فَذَبَحُوهَا ﴾

لأنهم لا يجدون حجة على الامتناع.

﴿ وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ لأنهم لا يعيشون في أنفسهم روح الطاعة والانقياد.

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ﴾ ولم يتبين لكم القاتل واختلفتم فكان التوجيه الإلهي لموسى (ع) في إظهار الحق في القضية التي كادت أن تخلُق لكم مشاكل صعبة مدمّرة، أن تذبحوا بقرة، ليظهر الحق من خلال ذلك في نهاية المطاف.

﴿ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ من الحقيقة المعروفة لديكم في الباطن الغامضة في الظاهر، نتيجة كتمانكم لمعلوماتكم.

﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾ أي اضربوا القتيل ببعض البقرة، ليحيا فيُحدّثهم عمّن قتله، ويرجع بعد ذلك ميتاً، فيكون ذبح البقرة قرباناً يقدمونه إلى الله ليستجيب لهم في دعائهم بأن يكشف لهم سرّ القاتل لتحلّ مشكلتهم الاجتماعية بذلك. حتى لا يتبادلوا الاتهامات التي تثير الخلاف والشحناء، وربما تؤدي إلى القتال وسفك الدماء، وليكون ذلك تقليداً دينياً لديهم في تقديم القربان إلى الله في كل حاجة يريدون قضاءَها.. ولينطلقوا في خلال ذلك إلى تأكيد فكرة الحياة بعد الموت من خلال التجربة الحسية التي تركّز المبدأ في حياتهم، ليزداد إيمانهم به بعد الموت.

﴿ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ كما أحيى هذا الميت.

﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ودلائل قدرته كما في هذه الحادثة التي تُمثّل معجزة إحياء الميت، وتحركون عقولكم في التفكير وفي تخطيط المنهاج الفكرية والعقيدية في قضية الإيمان باليوم الآخر، على اساس المقارنة بين عملية الإيجاد التي هي دليل على القدرة في عملية البحث، وبين التجربة الحية الماثلة أمامهم التي تمثّل دليلاً على طبيعة التجربة الكبرى التي جاءت بها النبوات في قضية يوم القيامة.

وهذا تأكيداً لدور العقل في مسألة العقيدة التي تستطيع أن تأخذ من حركته

في القضايا الفكرية الأساس القوي الذي يركّز الفكرة على قاعدة ثابتة لا تهتزّ تحت تأثير الأهواء والعواصف.

*** الطبري:**

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴾

وهذه الآية ممّا وبّخ الله بها المخاطبين من بني إسرائيل، في نقض أوائلهم الميثاق الذي أخذه الله عليهم بالطاعة لأنبيائه، فقال لهم: واذكروا أيضاً من نكثكم ميثاقي، «إذ قال موسى لقومه» وقومه بنو إسرائيل، إذ ادارؤوا في القتيل الذي قتل فيهم إليه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ﴾. و»الهزؤ»: اللعب والسخرية.

حدّثنا به محمد بن عبد الأعلى قال، حدثنا المُعتمر بن سليمان قال، سمعت أيوب، عن محمد بن سيرين، عن عبيدة قال: كان في بني إسرائيل رجل عقيم أوعاقر قال: فقتله وليه، ثم احتمله فألقاه في سبط غير سبطه. قال: فوقع بينهم فيه الشر حتى أخذوا السلاح. قال: فقال أولو النهى: أتقتتلون وفيكم رسول الله؟ قال: فأتوا نبي الله، فقال: اذبحوا بقرة! فقالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ ﴾، إلى قوله: ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ قال: فضرب، فأخبرهم بقاتله. قال: ولم تؤخذ البقرة إلا بوزنها ذهبا، قال: ولو أنهم أخذوا أدنى بقرة لأجزأت عنهم. فلم يورث قاتل بعد ذلك.

فقال الذين قيل لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ﴾ بعد أن علموا واستقر عندهم، أن الذي أمرهم به موسى من ذلك عن أمر الله من ذبح بقرة جد وحق، ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ﴾، فسألوا موسى أن يسأل ربه لهم ما كان الله قد كفاهم بقوله لهم: ﴿اذبحوا بقرة﴾. لأنه جل ثناؤه إنما أمرهم بذبح بقرة من البقر

أي بقرة شاءوا ذبحها من غير أن يحصر لهم ذلك على نوع منها دون نوع أوصنف دون صنف فقالوا بجفاء أخلاقهم وغلظ طبائعهم، وسوء أفهامهم، وتكلف ما قد وضع الله عنهم مؤونته، تعنتا منهم لنبيهم (ع).

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿عَوَانٌ﴾

«العوان» النصف التي قد ولدت بطنا بعد بطن، وليست بنعت للبكر. يقال منه: «قد عونت» إذا صارت كذلك. وإنما معنى الكلام أنه يقول: إنّها بقرة لا فارض ولا بكر بل عوان بين ذلك. ولا يجوز أن يكون «عوان» إلاّ مبتدأ. لأن قوله﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾، كناية عن الفارض والبكر، فلا يجوز أن يكون متقدما عليهما.

يعني بقوله: ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾: أي بين البكر والهرمة.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ﴾

يقول الله لهم جل ثناؤه: افعلوا ما آمركم به تدركوا حاجاتكم وطلباتكم عندي، واذبحوا البقرة التي أمرتكم بذبحها، تصلوا بانتهائكم إلى طاعتي بذبحها إلى العلم بقاتل قتيلكم.

﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾

ومعنى ذلك: قال قوم موسى لموسى: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾؟ أي لون البقرة التي أمرتنا بذبحها. وهذا أيضاً تعنّت آخر منهم بعد الأول، وتكلّف طلب ما قد كانوا كفوه في المرة الثانية والمسألة الآخرة. وذلك أنهم لم يكونوا حصروا في المرة الثانية إذ قيل لهم بعد مسألتهم عن حلية البقرة التي كانوا أمروا بذبحها، فأبوا إلاّ تكلّف ما قد كفوه من المسألة عن صفتها، فحصروا على نوع دون سائر الأنواع، عقوبة من الله لهم على مسألتهم التي سألوها نبيهم (ص)، تعنتا منهم له. ثم لم

يحصرهم على لون منها دون لون، فأبوا إلا تكلفاً ما كانوا عن تكلفه أغنياء، فقالوا تعنتا منهم لنبيهم (ص) كما ذكر ابن عباس: ﴿ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ﴾؟ فقيل لهم عقوبة لهم: ﴿ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴾. فحصروا على لون منها دون لون. ومعنى ذلك: أن البقرة التي أمرتكم بذبحها صفراء فاقع لونها.

* * *

﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾

يعني بقوله: ﴿ قَالُواْ ﴾ قال قوم موسى الذين أمروا بذبح البقرة لموسى. فترك ذكر موسى، وذكر عائد ذكره، اكتفاء بما دل عليه ظاهر الكلام.

وذلك أن معنى الكلام: قالوا له: «ادع ربك». فلم يذكر «له» لما وصفنا. وقوله: ﴿ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ﴾، خبر من الله عن القوم بجهلة منهم ثالثة. وذلك أنهم لو كانوا إذ أمروا بذبح البقرة، ذبحوا أيّتها تيسرت ممّا يقع عليه اسم بقرة، كانت عنهم مجزئة، ولم يكن عليهم غيرها، لأنهم لم يكونوا كلفوها بصفة دون صفة. فلما سألوا بيانها بأي صفة هي، بين لهم أنها بسن من الأسنان دون سن سائر الأسنان، فقيل لهم: هي عوان بين الفارض والبكر والضرع. فكانوا إذ بينت لهم سنها لو ذبحوا أدنى بقرة بالسن التي بينت لهم، كانت عنهم مجزئة، لأنهم لم يكونوا كلفوها بغير السن التي حدّدت لهم، ولا كانوا حصروا على لون منها دون لون. فلما أبوا إلاّ أن تكون معرفة لهم بنعوتها، مبينة بحدودها التي تفرق بينها وبين سائر بهائم الأرض، فشددوا على أنفسهم شدّد الله عليهم بكثرة سؤالهم نبيهم واختلافهم عليه. ولذلك قال نبينا (ص) لأمته: «ذروني ما تركتكم، فإنما أهلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم. فإذا أمرتكم بشيء فأتوه، وإذا نهيتكم عن شيء فانتهوا عنه ما استطعتم». ولكن القوم لما زادوا نبيهم موسى (ص) أذى وتعنتا، زادهم الله عقوبة وتشديداً، كما:

إن بني إسرائيل لوكانوا أخذوا أدنى بقرة فذبحوها أجزأت عنهم، ولكنّهم شددوا فشدد الله عليهم.

﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾

وتأويل ذلك: قال موسى: إن الله يقول إنّ البقرة التي أمرتكم بذبحها بقرة لا ذلول. ويعني بقوله: ﴿ لَّا ذَلُولٌ ﴾، أي لم يذلّلها العمل. فمعنى الآية: إنها بقرة لم تذللها إثارة الأرض بأظلافها، ولا سُنِيَ عليها الماء فيُسقى عليها الزرع. كما يقال للدابة التي قد ذلّلها الركوب أوالعمل: «دابة ذلول بينة الذِّل» بكسر الذال. ويقال في مثله من بني آدم:»رجل ذليل بين الذِّل والذلة».

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿مُسَلَّمَةٌ ﴾

ومعنى ﴿مُسَلَّمَةٌ ﴾ مفعلة من السلامة، يقال منه: سلمت تسلم فهي مسلمة.

ثم اختلف أهل التأويل في المعنى الذي سلمت منه، فوصفها الله بالسلامة منه. فقال مجاهد بما:

عن عيسى، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿مُسَلَّمَةٌ ﴾ يقول: مسلمة من الشية، ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا ﴾ لا بياض فيها ولا سواد.

وقال آخرون: مسلمة من العيوب.

والذي قاله ابن عباس وأبو العالية ومن قال بمثل قولهما في تأويل ذلك، أولى بتأويل الآية مما قاله مجاهد. لأن سلامتها لوكانت من سائر أنواع الألوان سوى لون جلدها، لكان في قوله:(مسلّمة) مُكْتَفًى عن قوله:(لا شية فيها). وفي قوله:(لا شية فيها)، ما يوضح عن أن معنى قوله:(مُسَلَّمة)، غير معنى قوله:(لا شية فيها).

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ ﴾

يعني بقوله: (لا شية فيها)، لا لون فيها يخالف لون جلدها. وأصله من «وشي الثوب»، وهو تحسين عيوبه التي تكون فيه، بضروب مختلفة من ألوان سداه ولحمته، يقال منه:»وشيت الثوب فأنا أشيه شية ووشيا».

﴿ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ﴾

اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ﴾. فقال بعضهم: معنى ذلك: الآن بينت لنا الحق فتبيناه، وعرفنا أية بقرة عنيت. وممّن قال ذلك قتادة:

حدثنا بشر بن معاذ قال، حدثنا يزيد قال، حدثنا سعيد، عن قتادة: ﴿ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ﴾، أي الآن بينت لنا.

وقال بعضهم: ذلك خبر من الله جل ثناؤه عن القوم أنهم نسبوا نبي الله موسى (ع)، إلى أنه لم يكن يأتيهم بالحق في أمر البقرة قبل ذلك. وممّن روي عنه هذا القول عبد الرحمن بن زيد.

وأولى التأويلين عندنا بقوله:﴿ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ﴾، قول قتادة. وهو أن تأويله: الآن بيّنت لنا الحق في أمر البقر، فعرفنا أيها الواجب علينا ذبحها منها. لأن الله جل ثناؤه قد أخبر عنهم أنهم قد أطاعوه فذبحوها، بعد قيلهم هذا. مع غلظ مؤونة ذبحها عليهم، وثقل أمرها، فقال: ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾، وإن كانوا قد قالوا بقولهم: الآن بينت لنا الحق، هراء من القول، وأتوا خطأ وجهلاً من الأمر. وذلك أن نبي الله موسى (ص) كان مبيّناً لهم في كل مسألة سألوها إياه، ورد رادوه في أمر البقر الحق. وإنما يقال: «الآن بينت لنا الحق» لمن لم يكن مبيناً قبل ذلك، فأما من كان كل قيله فيما أبان عن الله تعالى ذكره حقاً وبياناً، فغير جائز أن يقال له في بعض ما أبان عن الله في أمره ونهيه، وأدى عنه إلى عباده من فرائضه التي أوجبها عليهم: ﴿ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ﴾، كأنه لم يكن جاءهم بالحق قبل ذلك!

وقد كان بعض من سلف يزعم أن القوم ارتدوا عن دينهم وكفروا بقولهم لموسى: ﴿ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ﴾، ويزعم أنهم نفوا أن يكون موسى أتاهم بالحق في أمر البقرة

قبل ذلك، وأن ذلك من فعلهم وقيلهم كفر. وليس الذي قال من ذلك عندنا كما قال، لأنهم أذعنوا بالطاعة بذبحها، وإن كان قيلهم الذي قالوه لموسى جهلة منهم وهفوة من هفواتهم.

﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾

يعني بقوله: ﴿فَذَبَحُوهَا﴾، فذبح قوم موسى البقرة، التي وصفها الله لهم وأمرهم بذبحها. ويعني بقوله: ﴿وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾، أي: قاربوا أن يَدَعوا ذبحها، ويتركوا فرض الله عليهم في ذلك.

ثم اختلف أهل التأويل في السبب الذي من أجله كادوا أن يضيعوا فرض الله عليهم، في ذبح ما أمرهم بذبحه من ذلك. فقال بعضهم: ذلك السبب كان غلاء ثمن البقرة التي أمروا بذبحها، وبينت لهم صفتها.

وقال آخرون: لم يكادوا أن يفعلوا ذلك خوف الفضيحة، إن أطلع الله على قاتل القتيل الذي اختصموا فيه إلى موسى.

والصواب من التأويل عندنا، أن القوم لم يكادوا يفعلون ما أمرهم الله به من ذبح البقرة، للخلتين كلتيهما: إحداهما غلاء ثمنها، مع ما ذكر لنا من صغر خطرها وقلة قيمتها؛ والأخرى خوف عظيم الفضيحة على أنفسهم، بإظهار الله نبيه موسى (ع) وأتباعه على قاتله.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾، واذكروا يا بني إسرائيل إذ قتلتم نفساً. و»النفس» التي قتلوها، هي النفس التي ذكرنا قصتها في تأويل قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً﴾. وقوله: ﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾، يعني فاختلفتم وتنازعتم. وإنما هو «فتدارأتم فيها» على مثال «تفاعلتم»، من الدرء. و»الدرء»: العوج،

وقد قيل إن معنى قوله: ﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾، فتدافعتم فيها. من قول القائل:

«درأت هذا الأمر عني»، ومن قول الله: ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ﴾[النور: ٨]، بمعنى يدفع عنها العذاب. وهذا قول قريب المعنى من القول الأول. لأن القوم إنما تدافعوا قتل قتيل، فانتفى كل فريق منهم أن يكون قاتله، كما قد بيّنا قبل فيما مضى من كتابنا هذا. وبنحو الذي قلنا في معنى قوله: ﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ قال أهل التأويل.

وكان تدارؤهم في النفس التي قتلوها، كما:

حدّثني ابن سعد قال، حدثني عمي قال، حدثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس في شأن البقرة. وذلك أن شيخا من بني إسرائيل على عهد موسى كان مُكثرا من المال وكان بنو أخيه فقراء لا مال لهم، وكان الشيخ لا ولد له، وكان بنو أخيه ورثته. فقالوا: ليت عمّنا قد مات فورثنا ماله! وإنه لما تطاول عليهم أن لا يموت عمهم، أتاهم الشيطان، فقال: هل لكم إلى أن تقتلوا عمكم، فترثوا ماله، وتغرموا أهل المدينة التي لستم بها ديته؟ وذلك أنهما كانتا مدينتين، كانوا في إحداهما، فكان القتيل إذا قتل وطرح بين المدينتين، قيس ما بين القتيل وما بين المدينتين، فأيهما كانت أقرب إليه غرمت الدية وأنهم لما سول لهم الشيطان ذلك، وتطاول عليهم أن لا يموت عمهم، عمدوا إليه فقتلوه، ثم عمدوا فطرحوه على باب المدينة التي ليسوا فيها. فلما أصبح أهل المدينة، جاء بنو أخي الشيخ، فقالوا: عمنا قتل على باب مدينتكم، فوالله لتغرمن لنا دية عمنا. قال أهل المدينة: نقسم بالله ما قتلنا ولا علمنا قاتلاً ولا فتحنا باب مدينتنا منذ أغلق حتى أصبحنا. وأنهم عمدوا إلى موسى، فلما أتوا قال بنو أخي الشيخ: عمّنا وجدناه مقتولاً على باب مدينتهم. وقال أهل المدينة: نقسم بالله ما قتلناه، ولا فتحنا باب المدينة من حين أغلقناه حتى أصبحنا. وأن جبريل جاء بأمر ربنا السميع العليم إلى موسى، فقال: قل لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾فتضربوه ببعضها.

فكان اختلافهم وتنازعهم وخصامهم بينهم في أمر القتيل الذي ذكرنا أمره، على ما روينا من علمائنا من أهل التأويل هو «الدرء» الذي قال الله جل ثناؤه لذريتهم

وبقايا أولادهم: ﴿فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

* * *

﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾

ويعني بقوله: ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، والله مُعلن ما كنتم تسرونه من قتل القتيل الذي قتلتم، ثم ادارأتم فيه. ومعنى «الإخراج» في هذا الموضع الإظهار والإعلان لمن خفي ذلك عنه، وإطلاعهم عليه، كما قال الله تعالى ذكره: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾النمل: ٢٥

يعني بذلك: يظهره ويطلعه من مخبئه بعد خفائه. والذي كانوا يكتمونه فأخرجه، هو قتل القاتل القتيل. لما كتم ذلك القاتل ومن علمه ممّن شايعه على ذلك، حتى أظهره الله وأخرجه، فأعلن أمره لمن لا يعلم أمره. وعَنَى جل ذكره بقوله: ﴿تَكْتُمُونَ﴾، تسرون وتغيبون.

﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

يعني جل ذكره بقوله: فقلنا لقوم موسى الذين ادارءوا في القتيل الذي قد تقدم وصفنا أمره: اضربوا القتيل. و«الهاء» التي في قوله: ﴿اضْرِبُوهُ﴾ من ذكر القتيل؛ ﴿بِبَعْضِهَا﴾ أي: ببعض البقرة التي أمرهم الله بذبحها فذبحوها.

ثم اختلف العلماء في البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة، وأي عضو كان ذلك منها. فقال بعضهم: ضرب بفخذ البقرة القتيل.

وقال آخرون: الذي ضرب به منها هو البضعة التي بين الكتفين.

وقال آخرون: الذي أمروا أن يضربوه به منها عظم من عظامها.

والصواب من القول في تأويل قوله عندنا: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾، أن يقال: أمرهم الله جل ثناؤه أن يضربوا القتيل ببعض البقرة ليحيا المضروب. ولا دلالة في الآية، ولا خبر تقوم به حجة، على أي أبعاضها التي أمر القوم أن يضربوا القتيل به. وجائز أن يكون الذي أمروا أن يضربوه به هو الفخذ، وجائز أن يكون ذلك الذنب

وغضروف الكتف، وغير ذلك من أبعاضها. ولا يضر الجهل بأي ذلك ضربوا القتيل، ولا ينفع العلم به، مع الإقرار بأن القوم قد ضربوا القتيل ببعض البقرة بعد ذبحها فأحياه الله.

﴿كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾، مخاطبة من الله عباده المؤمنين، واحتجاج منه على المشركين المكذبين بالبعث، وأمرهم بالاعتبار بما كان منه جل ثناؤه من إحياء قتيل بني إسرائيل بعد مماته في الدنيا. فقال لهم تعالى ذكره: أيها المكذبون بالبعث بعد الممات، اعتبروا بإحيائي هذا القتيل بعد مماته، فإني كما أحييته في الدنيا، فكذلك أحيي الموتى بعد مماتهم، فأبعثهم يوم البعث. وإنما احتج جل ذكره بذلك على مشركي العرب، وهم قوم أميون لا كتاب لهم، لأن الذين كانوا يعلمون علم ذلك من بني إسرائيل كانوا بين أظهرهم، وفيهم نزلت هذه الآيات، فأخبرهم جل ذكره بذلك، ليتعرفوا علم من قِبَلهم.

﴿وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾

يعني جل ذكره: ويريكم الله أيها الكافرون المكذبون بمحمد (ص)، وبما جاء به من عند الله من آياته وآياته: أعلامه وحجّجه الدالة على نبوته لتعقلوا وتفهموا أنه محق صادق، فتؤمنوا به وتتبعوه.

***الطبرسي:**

﴿ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٦٧ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ ٦٨ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ٦٩ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَاۖ وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ٧٠ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ

﴿ لَا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ ﴾.

المعنى: هذه الآيات معطوفة على ما تقدمها من الآيات الواردة في البيان لنعم الله تعالى على بني إسرائيل، ومقابلتهم لها بالكفران والعصيان، فقال: ﴿وَ﴾ اذكروا أيضاً من نكثكم ميثاقي الذي أخذته عليكم بالطاعة ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ۖ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ قال قوم موسى له: أتسخر بنا حيث سألناك عن القتيل، فتأمرنا بذبح بقرة؟ وإنما قالوا ذلك لتباعد ما بين الأمرين في الظاهر، مع جهلهم بوجه الحكمة فيما أمرهم به، لأن موسى(ع)، أمرهم بالذبح، ولم يبين لهم أنّ الذبح لأي معنى. فقالوا: أي صال لذبح البقرة بما ترافعنا فيه إليك فهذا استهزاء بنا؟ ﴿ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ أي: معاذ الله أن أكون من المستهزئين. وإنما قال: ﴿ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ ليدل على أن الاستهزاء لا يصدر إلاَّ عن جاهل، فإن من استهزأ بغيره، لا يخلو إما أن يستهزئ بخلقته، أو بفعل من أفعاله. فأما الخلقة فلا معنى للاستهزاء بها. وأما الفعل فإذا كان قبيحاً، فالواجب أنْ ينبه فاعله على قبحه، لينزجر عنه. فأما أن يستهزئ به فلا. فالاستهزاء على هذا يكون كبيرة لا يقع إلاَّ عن جاهل به، أو محتاج إليه.

فإن قيل: لِمَ أُمروا بذبح البقرة دون غيرها؟ قيل فيه: لأنها من جنس ما عبدوه من العجل، ليهون عندهم ما كانوا يرونه من تعظيمه، فيزول ما كان في نفوسهم من عبادته. وإنما أحيا الله القتيل بقتل حي، ليكون أظهر لقدرته في اختراع الأشياء من أضدادها. فلما علموا أنّ ذبح البقرة فرض من الله تعالى، سألوا عنها فبدأوا بسنها فـ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ أي: سل من أجلنا ربك ﴿ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ﴾ ولم يظهر في السؤال أن المسؤول عنه سن البقرة، وإنما ظهر ذلك في الجواب ﴿ قَالَ ﴾ موسى (ع): ﴿ إِنَّهُ يَقُولُ ﴾ أي: إنَّ الله عزَّ اسمه يقول ﴿ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ ﴾ أي: ليست بكبيرة هرمة ولا صغيرة.

﴿ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ أي: هي وسط بين الصغيرة والكبيرة، وهي أقوى ما يكون، وأحسن من البقر والدواب، عن ابن عباس. وقيل: وسط، ولدت بطناً أو بطنين، عن

مجاهد. ﴿فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ﴾ أي: اذبحوا ما أُمرتم بذبحه. فلما بين سبحانه سن البقرة، سألوا عن لونها ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَا﴾ أي: سل ربك يبين لنا ما لون البقرة التي أُمرنا بذبحها. ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ﴾ حتى قرنها وظلفها أصفران، عن الحسن، وسعيد بن جبير. ﴿فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا﴾ أي: شديدة صفرة لونها. وقيل: خالص الصفرة. وقيل: حسن الصفرة.

وقوله: ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ أي: تعجب الناظرين وتفرحهم بحسنها عن قتادة، وغيره، وروي عن الصادق (ع) أنه قال: من لبس نعلاً صفراء، لم يزل مسروراً يعني يبليها كما قال الله تعالى: ﴿فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾. ولما بين سبحانه من البقرة ولونها، سألوا عن صفتها فـ﴿قَالُواْ﴾ يا موسى ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ أي: من العوامل، أم من السوائم ﴿إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا﴾ أي: اشتبه علينا صفة البقرة التي أمرنا الله بذبحها ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ﴾ إلى صفة البقرة بتعريف الله إيانا، وبما يشاؤه لنا من اللطف والزيادة في البيان.

وروى ابن جريج، وقتادة، عن ابن عباس، عن النبي (ص) أنهم أمروا بأدنى بقرة، ولكنهم لما شدّدوا على أنفسهم، شدد الله عليهم. وأيم الله! لو لم يستثنوا ما بينت لهم إلى آخر الأبد. ﴿قَالَ﴾: يعني موسى (ع) ﴿إِنَّهُۥ﴾ يعني الله تعالى ﴿يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ﴾ أي: البقرة التي أمرتم بذبحها ﴿لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي: لا يستقى عليها الماء.

فتستقي الزرع ﴿مُسَلَّمَةٞ﴾ أي: بريئة من العيوب عن قتادة وعطاء. وقيل: مسلمة من الشية، ليس لها لون يخالف لونها، عن مجاهد. وقيل: سليمة من آثار العمل، لأن ما كان من العوامل لا يخلو من آثار العمل في قوائمه وبدنه. وقال الحسن: إنها كانت وحشية ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾

قال أهل اللغة: لا وضح فيها يخالف لون جلدها. وقيل: لا لون فيها سوى لونها، عن قتادة، ومجاهد.

﴿ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي: ظهر لنا الحق الآن، وهي بقرة فلان. وهذا يدل على أنهم جوزوا أنه قبل ذلك لم يجئ بالحق على التفصيل، وإنما أتى به على وجه الجملة. وقال قتادة: الآن بينت الحق. وهذا يدل على أنه كان فيهم من يشك في أن موسى (ع) ما بين الحق﴿ فَذَبَحُوهَا ﴾ يعني ذبحوا البقرة على ما أُمروا به ﴿ وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ أي: قرب أن لا يفعلوا ذلك مخافة اشتهار فضيحة القاتل. قيل: كادوا لا يفعلون ذلك، لغلاء ثمنها. فقد حكي عن ابن عباس أنهم اشتروها بملء جلدها ذهباً من مال المقتول. وعن السدي: بوزنها عشر مرات ذهباً. قال عكرمة: وما ثمنها إلاَّ ثلاثة دنانير.

ونذكر ههنا فصلاً موجزاً ينجذب إلى الكلام في أُصول الفقه: اختلف العلماء في هذه الآيات: فمنهم من ذهب إلى أن التكليف فيها متغاير، وأنهم لما قيل لهم اذبحوا بقرة لم يكن المراد منهم إلاَّ ذبح أي بقرة شاؤوا من غير تعيين بصفة. ولو أنهم ذبحوا أي بقرة اتفقت لهم كانوا قد امتثلوا الأمر، فلما لم يفعلوا كان المصلحة أن يشدد عليهم التكليف. ولما راجعوا المرة الثانية، تغيرت مصلحتهم إلى تكليف ثم اختلف هؤلاء من وجه آخر: فمنهم من قال في التكليف الأخير: إنه يجب أن يكون مستوفياً لكل صفة تقدمت. فعلى هذا القول يكون التكليف الثاني والثالث تكليف إلى تكليف، زيادة في التشديد عليهم، لما فيه من المصلحة. ومنهم من قال: إنه يجب أن يكون بالصفة الأخيرة فقط دون ما تقدم. وعلى هذا القول يكون التكليف الثاني نسخاً للأول، والتكليف الثالث نسخاً للثاني. وقد يجوز نسخ الشيء قبل الفعل، لأن المصلحة تجوز أنْ يتغير بعد فوات وقته. وإنما لا يجوز نسخ الشيء قبل وقت الفعل، لأن ذلك يؤدي إلى البداء. وذهب آخرون إلى أن التكليف واحد، وأن الأوصاف المتأخرة هي للبقرة المتقدمة، وإنما تأخر البيان وهو مذهب المرتضى، قدس الله روحه. واستدل بهذه الآية على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب إلى وقت الحاجة. قال: إنه تعالى لما كلفهم ذبح بقرة، قالوا لموسى (ع): ﴿ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ﴾ فلا يخلو قولهم: ﴿ مَا هِىَ ﴾ من أن يكون كناية عن البقرة المتقدم

ذكرها، أو عن التي أُمروا بها ثانياً. والظاهر من قولهم: ﴿مَا هِيَۚ﴾ يقتضي أنْ يكون السؤال عن صفة البقرة المأمور بذبحها، لأنه لا علم لهم بتكليف ذبح بقرة أخرى، فيستفهموا عنها. وإذا صح ذلك فليس يخلو قوله: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكۡرٌ﴾ من أن يكون الهاء فيه كناية عن البقرة الأولى، أو عن غيرها. وليس يجوز أن يكون كناية عن بقرة ثانية، لأن الظاهر يقتضي أن تكون الكناية متعلقة بما تضمنه سؤالهم، ولأنه لو لم يكن الأمر على ذلك، لم يكن جواباً لهم. وقول القائل في جواب من سأله: ما كذا وكذا؟ إنه بالصفة الفلانية صريح في أن الهاء كناية عما وقع السؤال عنه. هذا مع قولهم: ﴿إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا﴾ فإنهم لم يقولوا ذلك إلاَّ وقد اعتقدوا أن خطابهم مجمل غير مبين، ولو كان الأمر على ما ذهب إليه القوم، فلِمَ لَمْ يقل لهم وأي تشابه عليكم وإنما أُمرتم في الابتداء بذبح بقرة أي بقرة كانت وفي الثاني بما يختص بالسن المخصوص، وفي الثالث بما يختص باللون المخصوص من أي البقر كان.

وأما قوله: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ فالظاهر أن ذمهم مصروف إلى تقصيرهم، أو تأخيرهم امتثال الأمر بعد البيان التام، وهو غير مقتضٍ ذمهم على ترك المبادرة في الأول إلى ذبح البقرة، فلا دلالة في الآية على ذلك.

﴿وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٧٢ فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٧٣﴾.

المعنى: ثم بين الله سبحانه المقصود من الأمر بالذبح، فبدأ بذكر القتل وقال: ﴿وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا﴾ ذكر فيها وجهان أحدهما: إنه متقدم في المعنى على الآيات المتقدمة في اللفظ، فعلى هذا يكون تأويله: وإذ قتلتم نفساً ﴿فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ﴾ فسألتم موسى، فقال لكم: إنَّ الله يأمركم أن تذبحوا بقرة فقدّم المؤخر، وأخّر المقدم. ونحو ذا كثير في القرآن والشعر. قال سبحانه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ١ قَيِّمٗا﴾ الكهف: ١ - ٢ تقدير أنزل على عبده الكتاب قَيماً، ولم يجعل له عوجاً. وقال الشاعر:

إنّ الفَرَزْدَقَ صخْرَةٌ مَلْمُمَةٌ طَالَتْ فليسَ يَنالُها الأوْعَالا

أي: طالت الأوعال. والوجه الآخر: إن الآية قد تعلقت بما هو متأخر في الحقيقة وهو قوله: ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾ الآية. فكأنه قال: فذبحوها وما كادوا يفعلون ولأنكم قتلتم نفساً فادارأتم فيها، أمرناكم أن تضربوه ببعضها، لينكشف أمره والمراد: واذكروا إذ قتلتم نفساً، وهذا خطاب لمن كان على عهد النبي (ص)، والمراد به أسلافهم على عادة العرب في خطاب الأبناء والأحفاد بخطاب الأسلاف والأجداد، وخطاب العشيرة بما يكون من أحدها، فقالت: فعلت بنو تميم كذا، وإن كان الفاعل واحداً.

ويحتمل أن يكون خطاباً لمن كان في زمن موسى (ع) وتقديره: وقلنا لهم وإذ قتلتم نفساً. وقيل: إن اسم المقتول عاميل فادارأتم فيها الهاء من﴿ فِيهَا ﴾ يعود إلى النفس أي: كل واحد دفع قتل النفس عن نفسه. وقيل: إنها تعود إلى القتلة أي اختلفتم في القتلة، لأن قوله: ﴿ قَتَلْتُمْ ﴾ يدل على المصدر، وعودها إلى النفس أولى وأشبه بالظاهر ﴿ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ أي: مظهر ما كنتم تسرون من القتل. قيل: معناه إنه مخرج من غامض أخباركم، ومطلع من معايبكم ومعايب أسلافكم على ما تكتمونه أنتم. وهو خطاب لليهود في زمن النبي (ص).

﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾ أي: قلنا لهم اضربوا ببعض القتيل البقرة، واختلفوا في البعض المضروب به القتيل، فقيل: ضرب بفخذ البقرة فقام حياً، وقال: قتلني فلان، ثم عاد ميتاً، عن مجاهد وقتادة وعكرمة. وقيل: ضرب بذَنَبها، عن سعيد بن جبير. وقيل: بالبضعة التي بين الكتفين، عن السدي. وقيل: ضرب ببعض آرابها، عن أبي زيد. وهذه الأقاويل كلها محتملة الظاهر. والمعلوم أن الله سبحانه وتعالى، أمر أن يضرب القتيل ببعض البقرة ليحيا القتيل إذا فعلوا ذلك، فيقول: فلان قتلني، ليزول الخلف والتدارؤ بين القوم. والصانع عزَّ اسمه، وإنْ كان قادراً على إحيائه من دون ذلك، فإنما أمرهم بذلك، لأنهم سألوا موسى أن يبين لهم حال القتيل، وهم كانوا يعدّون القربان من أعظم القربات، وكانوا جعلوا له بيتاً على حدة لا يدخله إلاَّ خيارهم،

فأمرهم الله بتقديم هذه القربة تعليماً منه لكل من اعتاص عليه أمر من الأمور أنْ يقدم نوعاً من القرب، قبل أن يسأل الله تعالى كشف ذلك عنه، ليكون أقرب إلى الإجابة. وإنما أمرهم بضرب القتيل ببعضها بعد أن جعل اختيار وقت الإحياء لهم، ليعلموا أن الله سبحانه وتعالى قادراً على إحياء الأموات في كل وقت من الأوقات، والتقدير في الآية: فقلنا اضربوه ببعضها فضربوه فحيي كما قال سبحانه: ﴿ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ﴾الشعراء: ٦٣ تقديره فضرب فانفلق.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾يحتمل أن يكون حكاية عن قول موسى (ع) لقومه أي: اعلموا بما عاينتموه أن الله تعالى قادر على إحياء الموتى الجزاء، ويحتمل أن يكون خطاباً من الله تعالى لمشركي قريش. والإشارة وقعت إلى قيام المقتول عند ضربه ببعض أعضاء البقرة، لأنه روي أنه قام حياً وأوداجُه تُشخب دماً، فقال: قتلني فلان ابن عمي، ثم قُبض. ﴿وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ يعني المعجزات الباهرة الخارقة للعادة من إحياء ذلك الميت وغيره. وقيل: أراد الأعلام الظاهرة الدالة على صدق محمد (ص).

﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ أي: لكي تستعملوا عقولكم، فإن من لم يستعمل عقله، ولم يبصر رشده، فهو كمن لا عقل له. وقيل: لكي تعقلوا ما يجب عليكم من أمور دينكم، واحتج الله تعالى بهذه الآيات على مشركي العرب فيما استبعدونه من البعث، وقيام الأموات، بقولهم: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا﴾الإسراء: ٤٩. فأخبرهم سبحانه بأن الذي أنكروه واستبعدوه لا يتعذر في اتساع قدرته. ونبّههم على ذلك بذكر المقتول وإحيائه بعد خروجه من الحياة.

***القرطبي:**

﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗ﴾.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ ﴾: حكي عن ابي عمرو أنه قرأ: ﴿ يَأۡمُرُكُمۡ ﴾ بالسكون وحذف الضمة من الراء لثقلها. قال أبو العباس المبرد: لا يجوز هذا لأن الراء حرف الإعراب. وإنما الصحيح عن أبي عمرو أنه كان يختلس الحركة ﴿ أَن تَذۡبَحُواْ ﴾في موضع نصب بـ﴿ يَأۡمُرُكُمۡ ﴾: أي بأن تذبحوا ﴿ بَقَرَةً ﴾ نصب بـ﴿ تَذۡبَحُواْ ﴾. وقد تقدم معنى الذبح، فلا معنى لإعادته.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗ ﴾ مقدم في التلاوة، وقوله ﴿ فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَا ﴾مقدّم في المعنى على جميع ما ابتدأ به من شأن البقرة. ويجوز أن يكون قوله: ﴿ فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ ﴾ في النزول مقدماً، والأمر بالذبح مؤخراً. ويجوز أن يكون ترتيب نزولها على حسب تلاوتها؛ فكأن الله أمرهم بذبح البقرة حتى ذبحوها ثم وقع ما وقع من أمر القتل، فأمروا أن يضربوه ببعضها: ويكون ﴿ وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ ﴾ مقدماً في المعنى على القول الأول حسب ما ذكرنا، لأن الواو لا توجب الترتيب. ونظيره في التنزيل في قصة نوح بعد ذكر الطوفان وانقضائه في قوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴾هود: ٤٠. فذكر إهلاك من هلك منهم ثم عطف عليه بقوله: ﴿ وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرِىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآ ﴾هود: ٤١. فذكر الركوب متأخراً في الخطاب؛ ومعلوم أن ركوبهم كان قبل الهلاك. وكذلك قوله تعالى: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝١ قَيِّمٗا ﴾الكهف: ١ - ٢ وتقديره: أنزل على عبده الكتاب قيّماً ولم يجعل له عوجاً، ومثله في القرآن كثير.

قوله تعالى: ﴿ بَقَرَةٗ ﴾. البقرة اسم للأنثى، والثور اسم للذكر، مثل ناقة وجمل، وامرأة ورجل. وقيل: البقرة واحد البقر؛ الأنثى والذكر سواء. أصله من قولك: بقَر بطنه؛ أي شقّه؛ فالبقرة تشق الأرض بالحرث وتثيره. ومنه الباقر لأبي جعفر محمد بن علي زين العابدين، لأنه بقرَ العلم وعرف أصله، أي شقّه.

قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ ﴾ هذا جواب منهم لموسى عليه السلام لما قال لهم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ ﴾

وذلك أنهم وجدوا قتيلاً بين أظهرهم ـ قيل اسمه عاميل ـ واشتبه أمر قاتله عليهم، ووقع بينهم خلاف؛ فقالوا: نقتتل ورسول الله بين أظهرنا، فأتوه وسألوه البيان ـ وذلك قبل نزول القسامة في التوراة. فسألوا موسى أن يدعو ا لله ـ فسأل موسى عليه السلام ربه فأمرهم بذبح بقرة؛ فلما سمعوا ذلك من موسى وليس في ظاهره جواب عما سألوه عنه واحتكموا فيه عنده؛ قالوا: ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ والهزء: اللعب والسخرية وقد تقدّم. وقرأ الحجوري: ﴿أَتَتَّخِذُنَا ﴾ بالياء؛ أي قال ذلك بعضهم لبعض فأجابهم موسى عليه السلام بقوله ﴿ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ لأن الخروج عن جواب السائل المسترشد إلى الهزء جهل؛ فاستعاذ منه عليه السلام، لأنها صفة تنتفي عن الأنبياء. والجهل نقيض العلم. فاستعاذ من الجهل، كما جهلوا في قولهم: ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ لمن يخبرهم عن الله تعالى، وظاهر هذا القول يدلّ على فساد اعتقاد من قاله. ولا يصح إيمان من قال لنبيّ قد ظهرت معجزاته؛ ـ وقال: إن الله يأمرك بكذا ـ: ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ ولو قال ذلك اليوم عن بعض أقوال النبي (ص) لوجب تكفيره. وذهب قوم إلى أن ذلك منهم على جهة غلظ الطبع والجفاء والمعصية؛ على نحو ما قال القائل للنبي (ص) في قسمة غنائم حنين: إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله. وكما قال له الآخر: أعدل يا محمد. وفي هذا كله أدل دليل على قبح الجهل، وأنه مفسد للدين.

قوله تعالى: ﴿ هُزُوًا ﴾ مفعول ثانٍ، ويجوز تخفيف الهمزة بأن تجعلها بين الواو والهمزة. وجعلها حفْص واواً مفتوحة، لأنها همزة مفتوحة قبلها ضمة فهي تجري على البدل. كقوله: ﴿ السُّفَهَاءُ وَلَكِن ﴾البقرة: ١٣ويجوز حذف الضمة من الزاي كما تحذفها من عضد. فتقول: هزؤاً، أهل الكوفة، وكذلك: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾الإخلاص: ٤.

﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ هذا تعنيت منهم وقلّة طواعية؛ ولو امتثلوا الأمر وذبحوا أي بقرة كانت لحصل المقصود، لكنهم شدّدوا على أنفسهم فشدَّد الله عليهم، قال ابن عباس وأبو العالية وغيرهما. ونحو ذلك روى الحسن البصري عن النبي (ص). ولغة بني عامر ﴿ ٱدْعُ ﴾ وقد تقدم. و﴿ يُبَيِّن ﴾ مجزوم على جواب الأمر. ﴿ مَا هِيَ ﴾ ابتداء وخبر. وماهية الشيء حقيقته وذاته التي هو عليها.

قوله تعالى: ﴿ هِيَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ في هذا دليل على جواز النسخ قبل وقت الفعل؛ لأنه لما أمر ببقرة اقتضى أي بقرة كانت، فلما زاد في الصفة نسخ الحكم الأول بغيره؛ كما لو قال: في ثلاثين من الإبل بنت مخاض، ثم نسخه بابنة لبون أو حِقّة. وكذلك ها هنا لما عيّن الصفة صار ذلك نسخاً للحكم المتقدم. والفارض: المسنّة وقد فرضت تفرض فروضاً؛ أي أسنّت. ويقال للشيء القديم فارض. و﴿ لَّا فَارِضٌ ﴾ رفع على الصفة لبقرة. ﴿ وَلَا بِكْرٌ ﴾ عطف. وقيل: ﴿ لَّا فَارِضٌ ﴾ خبر مبتدأ مضمر؛ أي لا هي فارض وكذا ﴿ لَّا ذَلُولٌ ﴾وكذلك ﴿ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ ﴾. وكذلك ﴿ مُسَلَّمَةٌ ﴾ فاعلمه. وقيل الفارض التي ولدت بطوناً كثيرة فيتسّع جوفها لذلك، لأن معنى الفارض في اللغة الواسع؛ قاله بعض المتأخرين. والبكر: الصغيرة التي لم تحمل. والبكر أيضاً في إناث البهائم وبني آدم: ما لم يفتحله الفحل؛ وهي مكسورة ال باء. وبفتحها الفتي من الإبل. والعوان: النصّف التي قد ولدت بطناً أو بطنين، وهي أقوى ما تكون من البقر وأحسنه، بخلاف الخيل. وجمعها (عُوْنٌ) بضم العين، وسكون الواو؛ وسمع (عُوُن) بضم الواو كُرُسل. وقد تقدم وحكى الفراء من العوان عوَّنت تعويناً.

قوله تعالى:﴿ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ تجديد للأمر وتأكيد وتنبيه على ترك التعنّت فما تركوه. وهذا يدل على أن مقتضى الأمر الوجوب كما تقوله الفقهاء، وهو الصحيح على ما هو مذكور في أصول الفقه، وعلى أن الأمر على الفور؛ وهو مذهب أكثر الفقهاء أيضاً. ويدل على صحة ذلك أنه تعالى استقصرهم حين لم يبادروا إلى فعل ما أمروا به فقال: ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾البقرة/٧١. وقيل: لا، بل على التراخي؛

لأنه لم يعنّفهم على التأخير والمراجعة في الخطاب.

﴿ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴾

قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَا ﴾ ﴿ مَا ﴾ استفهام مبتدأة، و﴿ لَوۡنُهَا ﴾ الخبر. ويجوز نصب ﴿ لَوۡنُهَا ﴾ بـ﴿ يُبَيِّن ﴾، وتكون ﴿ مَا ﴾ زائدة. واللون واحد الألوان، وهو هيئة كالسواد والبياض والحمرة. واللَّون: النوع. وفلان متلوِّن: إذا كان لا يثبت على خلق واحد وحال واحد. قوله: ﴿ صَفۡرَآءُ ﴾ جمهور المفسّرين أنها صفراء اللون، من الصفرة المعروفة. قال مكّي عن بعضهم. حتى القرن والظّلف. وقال الحسن وابن جبير: كانت صفراء القرن والظلف فقط. وعن الحسن أيضاً: ﴿ صَفۡرَآءُ ﴾معناه سوداء.

قلت: والأول أصح لأنه الظاهر، وهذا شاذ لا يستعمل مجازاً إلاّ في الإبل، قال الله تعالى: ﴿ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٞ صُفۡرٞ ﴾المرسلات: ٣٣ وذلك أن السود من الإبل سوادها صُفرة. ولو أراد السواد لما أكده بالفقوع، وذلك نعت مختص بالصفرة، وليس يوصف السواد بذلك، تقول العرب: أسود حالك وحلَكوك وحلْكوك، ودجوجي، وغِربيب، وأحمر قانئ، وأبيض ناصع، ولهق ولهاق ويقق، وأخضر ناضر، وأصفر فاقع؛ هكذا نصَّ نقلة اللغة عن العرب. قال الكسائي: يقال فقعَ لونها يفقع فقوعاً إذا خلصت صفرته. والإفقاع: سوء الحال. وفواقع الدهر بوائقه. وفقّع بأصابعه إذا صوَّت، ومنه حديث ابن عباس: نهى عن التفقيع في الصلاة وهي الفرقعة، وهي غمز الأصابع حتى تنقض ولم ينصرف ﴿ صَفۡرَآءُ ﴾ في معرفة ولا نكرة؛ لأن فيها ألف التأنيث وهي ملازمة فخالفت الهاء؛ لأن ما فيه الهاء ينصرف في النكرة، كفاطمة وعائشة.

قوله تعالى: ﴿ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا ﴾ يريد خالصاً لونها لا لون فيها سوى لون جلدها. ﴿ تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴾ قال وهب: كأن شعاع الشمس يخرج من جلدها، ولهذا قال ابن عباس: الصفرة تسرّ النفس. وحضّ على لباس النِّعال الصفر؛ حكاه عنه النقاش.

وقال علي بن أبي طالب (رضي الله عنه): «من لبس نعلي جلد أصفر قلّ همه»، لأن الله تعالى يقول: ﴿صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾؛ حكاه عنه الثعلبي. ونهى ابن الزبير ومحمد بن أبي كثير عن لباس النعال السود، لأنها تهم. ومعنى ﴿تَسُرُّ﴾ تعجب وقال أبو العالية: معناه في سمْتها ومنظرها فهي ذات وصفين، والله أعلم.

﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ سألوا سؤالاً رابعاً، ولم يمتثلوا الأمر بعد البيان. وذكّر البقر لأنه بمعنى الجمع. ولذلك قال: ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ فذكّره للفظ تذكير البقر.

قال قطرب: جمع البقرة باقر وباقور وبقر. وقال الأصمعي: الباقر جمع باقرة، قال: ويجمع بقر على باقورة، حكاه النحّاس. وقال الزجّاج: المعنى إن جنس البقر. وقرأ الحسن في ما ذكر النحاس، والأعرج في ما ذكر الثعلبي ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَّشَٰبَهَ﴾ بالتاء وشد الشين، جعله فعلاً مستقبلاً وأنّثه. والأصل تتشابه، ثم أدغم التاء في الشين. وقرأ مجاهد (تشبه) كقراءتهما، إلا أنه بغير ألف. وفي مصحف أبيّ (تشابهت) بتشديد الشين.

والبقر والباقور والبيقور والبقير لغات بمعنى، والعرب تذكّره وتؤنثه، وإلى ذلك ترجع معاني القراءات في (تشابه). وقيل: إنما قالوا: ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ لأن وجوه البقر تتشابه؛ ومنه حديث حذيفة بن اليمَان عن النبي (ص) أنه ذكر: «فتناً كقطع الليل تأتي كوجوه البقر». يريد أنها يشبه بعضها بعضاً. ووجوه البقر تتشابه، ولذلك قالت بنو إسرائيل: إن البقر تشابه علينا.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ استثناء منهم، وفي استثنائهم في هذا السؤال الأخير إنابة وانقياد، ودليل ندم على عدم موافقة الأمر. وروي عن النبي (ص)

أنه قال: «لو ما استثنوا ما اهتدوا إليها أبداً». وتقدير الكلام وإنا لمهتدون إن شاء الله. فقدم على ذكر الاهتداء اهتماماً به. و﴿ شَآءَ ﴾ في موضع جزم بالشرط وجوابه عند سيبويه الجملة ﴿ إن ﴾ وما عملت فيه. وعند أبي العباس المبرّد محذوف.

﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾

قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ ﴾ قرأ الجمهور: ﴿ لَّا ذَلُولٌ ﴾ بالرفع على الصفة لبقرة. قال الأخفش: ﴿ لَّا ذَلُولٌ ﴾ نعته ولا يجوز نصبه. وقرأ أبو عبد الرحمن السّلمي ﴿ لَّا ذَلُولٌ ﴾ بالنصب على النفي والخبر مضمر. ويجوز لا هي ذلول، لا هي تسقي الحرث، هي مسلّمة.

ومعنى ﴿ لَّا ذَلُولٌ ﴾ لم يذلّلها العمل، يقال: بقرة مذلّلة بيّنه الذّل بكسر الذال. ورجل ذليل بيّن الذلّ (بضم الذال). أي هي بقرة صعبة غير ريّضة لم تذلّل بالعمل.

قوله تعالى: ﴿ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ ﴾ ﴿ تُثِيرُ ﴾ في موضع رفع على الصفة للبقرة؛ أي هي بقرة لا ذلول مثيرة.

قال الحسن: وكانت تلك البقرة وحشية، ولهذا وصفها الله تعالى بأنها لا تثير الأرض ولا تسقي الحرث، أي لا يسنى بها لسقي الزرع ولا يسقى عليها. والوقف ها هنا حسن.

وقال قوم ﴿ تُثِيرُ ﴾ فعل مستأنف، والمعنى إيجاب الحرث لها، وأنها كانت تحرث ولا تسقي. والوقف على هذا التأويل ﴿ لَّا ذَلُولٌ ﴾.

قلت: ويحتمل أن تكون ﴿ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ ﴾ في غير العمل مرحاً ونشاطاً، فعلى هذا يكون ﴿ تُثِيرُ ﴾ مستأنفاً، ﴿ وَلَا تَسْقِى ﴾ معطوف عليه؛ فتأمله. وإثارة الأرض: تحريكها وبحثها؛ ومنه الحديث: «أثيروا القرآن فإنه علم الأولين والآخرين» وفي رواية أخرى: «من أراد العلم فليثوّر القرآن» وقد تقدم وفي التنزيل: ﴿ وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ ﴾ الروم: ٩. أي قلبوها للزراعة. والحرث: ما حرث وزرع.

قوله تعالى: ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ أي هي مسلمة. ويجوز أن يكون وصفاً؛ أي أنها بقرة مسلّمة من العرج وسائر العيوب، قاله قتادة وأبو العالية. ولا يقال: مسلّمة من العمل لنفي الله العمل عنها وقال الحسن: يعني سليمة القوائم لا أثر فيها للعمل.

قوله تعالى: ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ أي ليس فيها لون يخالف معظم لونها، هي صفراء كلها لا بياض فيها ولا حمرة ولا سواد، كما قال ﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾. وأصل ﴿شِيَةَ﴾ وشي، حذفت الواو كما حذفت من يشي، والأصل يوشي، ونظيره الزنّة والعِدة والصلة. والشية مأخوذة من وشي الثوب إذا نسج على لونين مختلفين. وثور موشّى: في وجهه وقوائمه سواد.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾أي بينت الحق، قاله قتادة. وحكى الأخفش: (قالوا الآن) قطع ألف الوصل؛ كما يقال: يا الله.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ أجاز سيبويه: كاد أن يفعل؛ تشبيهاً، وقد تقدم أول السورة وهذا إخبار عن تثبيطهم في ذبحها وقلة مبادرتهم إلى أمر الله، وقال القرطبي محمد بن كعب: لغلاء ثمنها. وقيل: خوفاً من الفضيحة على أنفسهم في معرفة القاتل منهم؛ قاله وهب بن منبّه.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَـْٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَـْٔتُمْ فِيهَا ۖ﴾ هذا الكلام مقدم على أول القصة، التقدير: وإذ قتلتم نفساً فادرأتم فيها. فقال موسى: إن الله يأمركم بكذا. وهذا كقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجًا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا﴾ الكهف: ١-٢ أي أنزل على عبده الكتاب قيّماً ولم يجعل له عوجاً؛ ومثله كثير، وقد بيّناه أول القصة.

كان لبني إسرائيل مسجد له اثنا عشر باباً لكل باب قوم يدخلون فيه، فوجدوا قتيلاً في سبط من الأسباط، فادعى هؤلاء على هؤلاء، وادعى هؤلاء على هؤلاء، ثم أتوا موسى يختصمون إليه فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ الآية. ومعنى

﴿ فَٱدَّٰرَءۡتُمۡ ﴾: اختلفتم وتنازعتم، قاله مجاهد. وأصله تدارأتم ثم أدغمت التاء في الدال؛ ولا يجوز الابتداء بالمدغم، لأنه ساكن فزيد ألف الوصل.﴿ وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ ﴾ ابتداء وخبر. ﴿ مَّا كُنتُمۡ ﴾ في موضع نصب بـ(مخرج)؛ ويجوز حذف التنوين على الإضافة. ﴿ تَكۡتُمُونَ ﴾ جملة في موضع خبر كان، والعائد محذوف؛ التقدير تكتمونه. ولا خلاف بين العلماء أنه لا يرث قاتل العمد من الديّة ولا من المال، إلا فرقة شذت عن الجمهور كلهم أهل بدع. ويرث قاتل الخطأ من المال ولا يرث من الدية في قول مالك والأوزاعي وأبي ثور والشافعي، لأنه لا يتهم على أنه قتله ليرثه ويأخذ ماله. وقال سفيان الثوري وأبو حنيفة وأصحابه، والشافعي في قول له آخر.

لا يرث القاتل عمداً ولا خطأ شيئاً من المال ولا من الدية، وهو قول شريح وطاووس والشّعبي والنخعي. ورواه الشعبي عن عمرو علي وزيد قالوا: لا يرث القاتل عمداً ولا خطأ شيئاً.

﴿ فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾

قوله تعالى: ﴿ فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَا ﴾

قيل: باللسان لأنه آلة الكلام. وقيل: بعجب الذّنب إذ فيه يركب خلق الإنسان. وقيل: بالفخذ. وقيل: بعظم من عظامها؛ والمقطوع به عضو من أعضائها؛ فلما ضرب به حيي وأخبر بقاتله ثم عاد ميتاً كما كان.

مسألة: استدل مالك رحمه الله في رواية ابن وهب وابن القاسم على صحة القول بالقسامة بقول المقتول: دمي عند فلان، أو فلان قتلني. ومنعه الشافعي وجمهور العلماء، قالوا وهو الصحيح: لأن قول المقتول: دمي عند فلان، أو فلان قتلني، خبر يحتمل الصدق والكذب ولا خلاف أن دم المدعي عليه معصوم ممنوع إباحته إلا بيقين، ولا يقين مع الاحتمال، فبطل اعتبار قول المقتول دمي عند فلان. وأما قتيل بني إسرائيل فكانت معجزة وأخبر تعالى أنه يحييه، وذلك يتضمن الإخبار بقاتله خبراً جزماً لا يدخله احتمال، فافترقا قال ابن العربي: المعجزة كانت في إحيائه، فلما

صار حياً كان كلامه كسائر كلام الناس كلهم في القبول والرد. وهذا فن دقيق من العلم لم يتفطن له إلا مالك، وليس في القرآن أنه إذا أخبر وجب صدقه، فلعله أمرهم بالقسامة معه. واستبعد ذلك البخاري والشافعي وجماعة من العلماء فقالوا: كيف يقبل قوله في الذم وهو لا يقبل قوله في درهم.

مسألة: في قصة البقرة هذه دليل على أن شرع من قبلنا شرع لنا؛ وقال به طوائف من المتكلمين وقوم من الفقهاء، واختاره الكرخي ونص عليه ابن بكير القاضي من علمائنا، وقال القاضي أبو محمد عبد الوهاب: هو الذي تقتضيه أصول مالك ومنازعه في كتبه وإليه مال الشافعي، وقد قال الله﴿ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ ﴾ الأنعام: ٩٠ على ما يأتي إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾أي كما أحيا هذا بعد موته كذلك يحيي الله كل من مات.

فالكافي في موضع نصب، لأنه نعت لمصدر محذوف. ﴿وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ أي علاماته وقدرته.

﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ كي تعقلوا. وقد تقدم. أي تمتنعون من عصيانه. وعقلت نفسي عن كذا أي منعتها. والمعاقل: الحصون.

*** الشيرازي:**

هذه الآيات تتحدث بالتفصيل عن حادثة أُخرى من حوادث تاريخ بني إسرائيل، هذا التفصيل لم نألفه في الآيات السابقة، ولعله يعود إلى أن هذه الحادثة ذكرت في هذا الموضع ــ لا غير ــ من القرآن الكريم، وإلى أنها تتضمن عِبَراً كثيرة تستوجب هذا التفصيل. من هذه الدروس: لجاج بني إسرائيل وعنادهم، ومستوى إيمانهم بكلام موسى(ع)، وأهمّ من كل هذا البرهنة على إمكان المعاد.

الحادثة (كما يبينها القرآن وكتب التّفسير) على النحو التالي: قتل شخص من بني إسرائيل بشكل غامض، ولم يعرف القاتل.

حدث بين قبائل بني إسرائيل نزاع بشأن هذه الحادثة، كل قبيلة تتهم الأُخرى بالقتل. توجّهوا إلى موسى ليقضي بينهم. فما كانت الأساليب الإعتيادية ممكنة في هذا القضاء. وما كان بالإمكان إهمال هذه المسألة لما سيترتب عليها من فتنة بين بني إسرائيل. لجأ موسى ـ بإذن الله ـ إلى طريقة إعجازية لحل هذه المسألة كما ستوضحها الآيات الكريمة.

يقوله سبحانه في هذه الآيات: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾؟!

﴿ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾.

أي: إن الإستهزاء من عمل الجاهلين، وأنبياء الله مبرّأون من ذلك.

بعد أن أيقنوا جديّة المسألة، ﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ﴾. وعبارة ((ربك)) تتكرّر في خطاب بني إسرائيل لموسى، وتنطوي على نوع من إساءة الأدب والسخرية، وكأن ربّ موسى غير ربهم!!

موسى(ع) أجابهم: ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ ۚ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾أي: إنها لا كبيرة هرمة ولا صغيرة، بل متوسطة بين الحالتين: ﴿ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴾.

لكن بني إسرائيل لم يكفوا عن لجاجتهم: ﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ﴾؟

أجابهم موسى: ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴾ أي: إنها حسنة الصفرة لا يشوبها لون آخر.

ولم يكتف بنو إسرائيل بهذا، بل أصرّوا على لجاجهم، وضيّقوا دائرة انتخاب البقرة على أنفسهم.

عادوا و﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ﴾ طالبين بذلك مزيداً من التوضيح، متذرعين بالقول: ﴿ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا ۖ وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾.

أجابهم موسى ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ ﴾أي:

ليست من النوع المذلل لحرث الأرض وسقيها.

﴿ مُسَلَّمَةٌ ﴾ من العيوب كلها.

﴿ لَّا شِيَةَ فِيهَا ﴾ أي: لا لون فيها من غيرها.

حينئذ: ﴿ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ﴾.

﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ أي: أنهم بعد أن وجدوا بقرة بهذه السمات ذبحوها بالرغم من عدم رغبتهم بذلك.

بعد أن ذكر القرآن تفاصيل القصة، عاد فلخص الحادث بآيتين:﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَـْٔتُمْ فِيهَا ﴾ أي: فاختلفتم في القتل وتدافعتم فيه.﴿ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾.

﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾ أي: اضربوا المقتول ببعض أجزاء البقرة، كي يحيى ويخبركم بقاتله. ﴿ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

وبعد هذه الآيات البينات، لم تلن قلوب بني إسرائيل، بل بقيت على قسوتها وغلظتها وجفافها.

*** الفخر الرازي:**

اعلم أن هذا هو النوع الثاني من التشديدات. روي عن ابن عباس وسائر المفسرين أن رجلاً من بني إسرائيل قتل قريباً لكي يرثه ثم رماه في مجمع الطريق ثم شكا ذلك إلى موسى (عليه السلام) فاجتهد موسى في تعرف القاتل، فلما لم يظهر قالوا له: سل لنا ربك حتى يبينه، فسأله فأوحى الله إليه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ﴾ فتعجبوا من ذلك ثم شددوا على أنفسهم بالاستفهام حالاً بعد حال واستقصوا في طلب الوصف فلما تعينت لم يجدوها بذلك النعت إلاّ عند إنسان معين ولم يبعها إلاّ بأضعاف ثمنها، فاشتروها وذبحوها وأمرهم موسى أن يأخذوا عضواً منها فيضربوا به القتيل، ففعلوا فصار المقتول حياً وسمي لهم قاتله وهو الذي ابتدأ بالشكاية فقتلوه قوداً، ثم ههنا مسائل:

المسألة الأولى: أن الإيلام والذبح حسن وإلاّ لما أمر الله به، ثم عندنا وجه الحسن فيه أنه تعالى مالك الملك فلا اعتراض لأحد عليه، وعند المعتزلة إنما يحسن لأجل الأعواض.

المسألة الثانية: أنه تعالى أمر بذبح بقرة من بقر الدنيا وهذا هو الواجب المخير فدل ذلك على صحة قولنا بالواجب المخير.

المسألة الثالثة: القائلون بالعموم اتفقوا على أن قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗ ﴾ معناه اذبحوا أي بقرة شئتم فهذه الصيغة تفيد هذا العموم، وقال منكروا العموم: إن هذا لا يدل على العموم واحتجوا عليه.

أما قوله تعالى:﴿ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗا ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قرىء:﴿ هُزُوًا ﴾ بالضم وهزؤا بسكون الزاي نحو كفؤاً وكفء وقرأ حفص:(هزواً) بالضمتين والواو وكذلك كفواً.

المسألة الثانية: قال القفال قوله تعالى:﴿ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗا ﴾ استفهام على معنى الانكار والهزء يجوز أن يكون في معنى المهزوء به كما يقال: كان هذا في علم الله أي في معلومه والله رجاؤنا أي مرجونا ونظيره قوله تعالى:﴿ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا ﴾ المؤمنون: ١١٠ قال صاحب «الكشاف»: ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗا ﴾ أتجعلنا مكان هزء أو أهل هزء أو مهزوأ بنا والهزء نفسه فرط الاستهزاء.

المسألة الثالثة: القوم إنما قالوا ذلك لأنهم لما طلبوا من موسى (عليه السلام) تعيين القاتل فقال موسى: اذبحوا بقرة لم يعرفوا بين هذا الجواب وذلك السؤال مناسبة، فظنوا أنه عليه السلام يلاعبهم، لأنه من المحتمل أن موسى (عليه السلام) أمرهم بذبح البقرة وما أعلمهم أنهم إذا ذبحوا البقرة ضربوا القتيل ببعضها فيصير حياً فلا جرم، وقع هذا القول منهم موقع الهزء، ويحتمل أنه عليه السلام وإن كان قد بين لهم كيفية الحال إلاّ أنهم تعجبوا من أن القتيل كيف يصير حياً بأن يضربوه ببعض أجزاء البقرة فظنوا أن ذلك يجري مجرى الاستهزاء.

المسألة الرابعة: قال بعضهم: إن أولئك القوم كفروا بقولهم لموسى (عليه السلام):

أتتخذنا هزؤاً لأنهم إن قالوا ذلك وشكوا في قدرة الله تعالى على إحياء الميت، فهو كفر وإن شكوا في أن الذي أمرهم به موسى (عليه السلام) هل هو بأمر الله تعالى، فقد جوزوا الخيانة على موسى (عليه السلام) في الوحي، وذلك أيضاً كفر. ومن الناس من قال: إنه لا يوجب الكفر وبيانه من وجهين. الأول: أن الملاعبة على الأنبياء جائزة فلعلهم ظنوا به (عليه السلام) أنه يلاعبهم ملاعبة حقة، وذلك لايوجب الكفر. الثاني: أن معنى قوله تعالى:﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ أي ما أعجب هذا الجواب كأنك تستهزىء بنا لا أنهم حققوا على موسى الاستهزاء.

أما قوله تعالى:﴿ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ ففيه وجوه.أحدها: أن الاشتغال بالاستهزاء لا يكون إلاّ بسبب الجهل ومنصب النبوة لا يحتمل الإقدام على الاستهزاء، فلم يستعذ موسى (عليه السلام) من نفس الشيء الذي نسبوه إليه، لكنه استعاذ من السبب الموجب له كما قد يقول الرجل عند مثل ذلك: أعوذ بالله من عدم العقل وغلبة الهوى، والحاصل أنه أطلق اسم السبب على المسبب مجازاً هذا هو الوجه الأقوى. وثانيها: أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين بما في الاستهزاء في أمر الدين من العقاب الشديد والوعيد العظيم، فإني متى علمت ذلك امتنع إقدامي على الاستهزاء. وثالثها: قال بعضهم: إن نفس الهزء قد يسمى جهلاً وجهالة، فقد روي عن بعض أهل اللغة: إن الجهل ضد الحلم كما قال بعضهم إنه ضد العلم.

واعلم أن هذا القول من موسى (عليه السلام) يدل على أن الاستهزاء من الكبائر العظام وقد سبق تمام القول فيه في قوله تعالى:﴿ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ البقرة: ١٤ - ١٥.

واعلم أن القوم سألوا موسى (عليه السلام) عن أمور ثلاثة مما يتعلق بالبقرة:

السؤال الأول: ما حكى الله تعالى عنهم أنهم:﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ﴾ فأجاب موسى (عليه السلام) بقوله:﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ واعلم أن في الآية أبحاثاً:

الأول: أنا إذا قلنا إن قوله تعالى:﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ يدل على الأمر

بذبح بقرة معينة في نفسها غير مبين التعيين حسن موقع سؤالهم، لأن المأمور به لما كان مجملاً حسن الاستفسار والاستعلام. أما على قول من يقول: إنه في أصل اللغة للعموم فلا بد من بيان أنه ما الذي حملهم على هذا الاستفسار؟ وفيه وجوه. أحدها: أن موسى (عليه السلام) لما أخبرهم بأنهم إذا ذبحوا البقرة وضربوا القتيل ببعضها صار حياً تعجبوا من أمر تلك البقرة، وظنوا أن تلك البقرة التي يكون لها مثل هذه الخاصة لا تكون إلاّ بقرة معينة، فلا جرم استقصوا في السؤال عن وصفها كعصا موسى المخصوصة من بين سائر العصي بتلك الخواص، إلاّ أن القوم كانوا مخطئين في ذلك، لأن هذه الآية العجيبة ما كانت خاصية البقرة، بل كانت معجزة يظهرها الله تعالى على يد موسى (عليه السلام). وثانيها: لعل القوم أرادوا بقرة، أي بقرة كانت، إلاّ أن القاتل خاف من الفضيحة، فألقى الشبهة في التبيين وقال المأمور به بقرة معينة لا مطلق البقرة، لما وقعت المنازعة فيه، رجعوا عند ذلك إلى موسى. وثالثها: أن الخطاب الأول وإن أفاد العموم إلاّ أن القوم أرادوا الاحتياط فيه، فسألوا طلباً لمزيد البيان وإزالة لسائر الاحتمالات، إلاّ أن المصلحة تغيرت واقتضت الأمر بذبح البقرة المعينة.

البحث الثاني: أن سؤال «ما هي» طلب لتعريف الماهية والحقيقة، لأن «ما» سؤال، و «هي» إشارة إلى الحقيقة، فما هي لا بد وأن يكون طلباً للحقيقة وتعريف الماهية والحقيقة لا يكون إلاّ بذكر أجزائها ومقدماتها لا بذكر صفاتها الخارجة عن ماهيتها، ومعلوم أن وصف السن من الأمور الخارجة عن الماهية فوجب أن لا يكون هذا الجواب مطابقاً لهذا السؤال: والجواب عنه: أن الأمر وإن كان كما ذكرتم لكن قرينة الحال تدل على أنه ما كان مقصودهم من قولهم: ما البقر طلب ماهيته وشرح حقيقته بل كان مقصودهم طلب الصفات التي بسببها يتميز بعض البقر عن بعض، فلهذا حسن ذكر الصفات الخارجة جواباً عن هذا السؤال.

البحث الثالث: قال صاحب «الكشاف»: الفارض المسنة وسميت فارضاً لأنها فرضت سنها، أي قطعتها وبلغت آخرها، والبكر: الفتية والعوان النصف، قال القاضي:

أما البكر، فقيل: إنها الصغيرة وقيل ما لم تلد، وقيل: إنها التي ولدت مرة واحدة، قال المفضل بن سلمة [الضبي]: إنه ذكر في الفارض أنها المسنة وفي البكر أنها الشابة وهي من النساء التي لم توطأ ومن الإبل التي وضعت بطناً واحداً. قال القفال: البكر يدل على الأول ومنه الباكورة لأول الثمر ومنه بكرة النهار ويقال: بكرت عليهما البارحة إذا جاء في أول الليل، وكأن الأظهر أنها هي التي لم تلد لأن المعروف من اسم البكر من الإناث في بني آدم ما لم ينز عليها الفحل، وقال بعضهم: العوان التي ولدت بطناً بعد بطن. وحرب عوان: إذا كانت حرباً قد قوتل فيها مرة بعد مرة، وحاجة عوان: إذا كانت قد قضيت مرة بعد مرة.

البحث الرابع: احتج العلماء بقوله تعالى:﴿ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ على جواز الاجتهاد واستعمال غالب الظن في الأحكام إذ لا يعلم أنها بين الفارض والبكر إلاّ من طريق الاجتهاد وههنا سؤالان:

الأول: لفظة «بين» تقتضي شيئين فصاعداً فمن أين جاز دخوله على ذلك؟ الجواب: لأنه في معنى شيئين حيث وقع مشاراً به إلى ما ذكر من الفارض والبكر.

السؤال الثاني: كيف جاز أن يشار بلفظه:(ذلك) إلى مؤنثين مع أنه للإشارة إلى واحد مذكر؟ الجواب: جاز ذكر ذلك على تأويل ما ذكر أو ما تقدم للاختصار في الكلام.

أما قوله تعالى:﴿ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ ففيه تأويلان: الأول: فافعلوا ما تؤمرون به من قولك: أمرتك الخير. والثاني: أن يكون المراد فافعلوا أمركم بمعنى مأموركم تسمية للمفعول بالمصدر كضرب الأمير. واعلم أن المقصود الأصلي من هذا الجواب كون البقرة في أكمل أحوالها، وذلك لأن الصغيرة تكون ناقصة لأنها بعدما وصلت إلى حالة الكمال، والمسنة كأنها صارت ناقصة وتجاوزت عن حد الكمال، فأما المتوسطة فهي التي تكون في حالة الكمال. ثم إنه تعالى حكى سؤالهم الثاني وهو قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ﴾ واعلم أنهم لما عرفوا حال السن شرعوا بعده في تعرف حال اللون فأجابهم الله تعالى بأنها:﴿ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا ﴾،

والفقوع أشدها يكون من الصفرة وأنصعه، يقال في التوكيد أصفر فاقع وأسود حالك وأبيض يقق وأحمر قانٍ وأخضر ناضر، وههنا سؤالان:

الأول: «فاقع» ههنا واقع خبراً عن اللون فكيف يقع تأكيداً لصفراء؟ الجواب: لم يقع خبراً عن اللون إنما وقع تأكيداً لصفراء إلاّ أنه ارتفع اللون به ارتفاع الفاعل واللون سببها وملتبس بها، فلم يكن فرق بين قولك: صفراء فاقعة وصفراء فاقع لونها.

السؤال الثاني: فهلا قيل صفراء فاقعة وأي فائدة في ذكر اللون؟ الجواب: الفائدة فيه التوكيد لأن اللون اسم للهيئة وهي الصفرة، فكأنه قيل شديدة الصفرة صفرتها فهو من قولك: جد جده وجنون مجنون. وعن وهب: إذ نظرت إليها خيل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها.

أما قوله تعالى:﴿ تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴾ فالمعنى أن هذه البقرة لحسن لونها تسر من نظر إليها، قال الحسن: الصفراء ههنا بمعنى السوداء، لأن العرب تسمي الأسود أصفر، نظيره قوله تعالى في صفة الدخان:﴿ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴾المرسلات: ٣٣ أي سود، واعترضوا على هذا التأويل بأن الأصفر لا يفهم منه الأسود ألبتة، فلم يكن حقيقة فيه، وأيضاً السواد لا ينعت بالفقوع، إنما يقال: أصفر فاقع وأسود حالك والله أعلم، وأما السرور فإنه حالة نفسانية تعرض عند حصول اعتقاد أو علم أو ظن بحصول شيء لذيذ أو نافع، ثم إنه تعالى حكى سؤالهم الثالث وهو قوله تعالى:﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾وههنا مسائل:

المسألة الأولى: قال الحسن عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: (والذي نفس محمد بيده لو لم يقولوا إن شاء الله لحيل بينهم وبينها أبداً)، واعلم أن ذلك يدل على أن التلفظ بهذه الكلمة مندوب في كل عمل يراد تحصيله، ولذلك قال الله تعالى لمحمد (صلى الله عليه وسلم):

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾الكهف: ٢٣ - ٢٤، وفيه استعانة بالله وتفويض الأمر إليه، والاعتراف بقدرته ونفاذ مشيئته.

المسألة الثانية: احتج أصحابنا بهذا على أن الحوادث بأسرها مرادة لله تعالى فإن عند المعتزلة أن الله تعالى لما أمرهم بذلك فقد أراد اهتداءهم لا محالة، وحينئذ لا يبقى لقولهم إن شاء الله فائدة. أما على قول أصحابنا فإنه تعالى قد يأمر بما لا يريد فحينئذ يبقى لقولنا إن شاء الله فائدة.

المسألة الثالثة: احتجت المعتزلة على أن مشيئة الله تعالى محدثة بقوله:﴿ وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾من وجهين: الأول: أن دخول كلمة «أن» عليه يقتضي الحدوث. والثاني: وهو أنه تعالى علق حصول الاهتداء على حصول مشيئة الاهتداء، فلما لم يكن حصول الاهتداء أزلياً وجب أن لا تكون مشيئة الاهتداء أزلية. ولنرجع إلى التفسير، فأما قوله تعالى:﴿يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ ففيه السؤال المذكور وهو أن قولنا: ما هو طلب بيان الحقيقة، والمذكور ههنا في الجواب الصفات العرضية المفارقة فكيف يكون هذا الجواب مطابقاً للسؤال؟ وقد تقدم جوابه.

أما قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا ﴾ فالمعنى أن البقر الموصوف بالتعوين والصفرة كثير فاشتبه علينا أيها نذبح، وقرىء تشابه بمعنى تتشابه بطرح التاء وإدغامها في الشين و (قرىء) تشابهت ومتشابهة ومتشابه.

أما قوله تعالى:﴿ وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ ففيه وجوه ذكرها القفال.أحدها: وإنا بمشيئة الله نهتدي للبقرة المأمور بذبحها عند تحصيلنا أوصافها التي بها تمتاز عما عداها.وثانيها: وإنا إن شاء الله تعريفها إيانا بالزيادة لنا في البيان نهتدي إليها. وثالثها: وإنا إن شاء الله على هدى في استقصائنا في السؤال عن أوصاف البقرة أي نرجوا أنا لسنا على ضلالة فيما نفعله من هذا البحث.ورابعها: إنا بمشيئة الله نهتدي للقاتل إذا وصفت لنا هذه البقرة بما به تمتاز هي عما سواها ثم أجاب الله تعالى عن سؤالهم بقوله تعالى:﴿ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ ﴾﴾ وقوله:﴿ لَّا ذَلُولٌ ﴾ صفة لبقرة بمعنى بقرة غير ذلول بمعنى لم تذلل للكراب وإثارة الأرض ولا هي من البقر التي يسقى عليها فتسقى الحرث و «لا» الأولى للنفي والثانية مزيدة لتوكيد الأولى، لأن المعنى لا ذلول تثير وتسقي على أن الفعلين صفتان لذلول كأنه قيل لا ذلول

مثيرة وساقية، وجملة القول أن الذلول بالعمل لا بد من أن تكون ناقصة فبين تعالى أنها لا تثير الأرض ولا تسقى الحرث لأن هذين العملين يظهر بهما النقص.

أما قوله تعالى:﴿ مُسَلَّمَةٌ ﴾ ففيه وجوه.أحدها: من العيوب مطلقاً.وثانيها: من آثار العمل المذكور. وثالثها: مسلمة أي وحشية مرسلة عن الحبس.ورابعها: مسلمة من الشية التي هي خلاف لونها أي خلصت صفرتها عن اختلاط سائر الألوان بها، وهذا الرابع ضعيف وإلا لكان قوله: ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا ﴾ تكراراً غير مفيد، بل الأولى حمله على السلامة من العيوب واللفظ يقتضي ذلك لأن ذلك يفيد السلامة الكاملة عن العلل والمعايب، واحتج العلماء به على جواز استعمال الظاهر مع تجويز أن يكون الباطن بخلافه لأن قوله: ﴿ مُسَلَّمَةٌ ﴾ إذا فسرناها بأنها مسلمة من العيوب فذلك لا نعلمه من طريق الحقيقة إنما نعلمه من طريق الظاهر:

أما قوله تعالى:﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا ﴾ فالمراد أن صفرتها خالصة غير ممتزجة بسائر الألوان لأن البقرة الصفراء قد توصف بذلك إذا حصلت الصفرة في أكثرها فأراد تعالى أن يبين عموم ذلك بقوله:﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا ﴾ روي أنها كانت صفراء الأظلاف صفراء القرون، والوشي خلط لون بلون. ثم أخبر الله تعالى عنهم بأنهم وقفوا عند هذا البيان واقتصروا عليه فقالوا:﴿ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ﴾أي الآن بانت هذه البقرة عن غيرها لأنها بقرة عوان صفراء غير مذللة بالعمل، قال القاضي: قوله تعالى: ﴿ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ﴾ كفر من قبلهم لا محالة لأنه يدل على أنهم اعتقدوا فيما تقدم من الأوامر أنها ما كانت حقه، وهذا ضعيف لاحتمال أن يكون المراد الآن ظهرت حقيقة ما أمرنا به حتى تميزت من غيرها فلا يكون كفراً.

أما قوله تعالى:﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ فالمعنى فذبحوا البقرة وما كادوا يذبحونها، وههنا بحث: وهو أن النحويين ذكروا «لكاد» تفسيرين.الأول: قالوا: إن نفيه إثبات وإثباته نفي. فقولنا: كاد يفعل كذا معناه قرب من أن يفعل لكنه ما فعله وقولنا: ما كاد يفعل كذا معناه قرب من أن يفعل لكنه فعله. والثاني: وهو اختيار الشيخ عبد القاهر (الجرجاني) النحوي أن كاد معناه المقاربة فقولنا كاد

يفعل معناه قرب من الفعل وقولنا ما كاد يفعل معناه ما قرب منه وللأولين أن يحتجوا على فساد هذا الثاني بهذه الآية لأن قوله تعالى:﴿ وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾ معناه وما قاربوا الفعل ونفي المقاربة من الفعل يناقض إثبات وقوع الفعل، فلو كان كاد للمقاربة لزم وقوع التناقض في هذه الآية. وههنا أبحاث:

البحث الأول: روي أنه كان في بني إسرائيل شيخ صالح له عجلة فأتى بها الغيضة وقال: اللهم إني استودعتكها لابني حتى تكبر وكان براً بوالديه فشبت وكانت من أحسن البقر واسمنها فتساوموها اليتيم وأمه حتى اشتروها بملء مسكها ذهباً وكانت البقرة إذ ذاك بثلاثة دنانير، وكانوا طلبوا البقرة الموصوفة أربعين سنة.

البحث الثاني: روي عن الحسن أن البقرة تذبح ولا تنحر وعن عطاء أنها تنحر، قال: فتلوت الآية عليه فقال: الذبح والنحر سواء، وحكي عن قتادة والزهري إن شئت نحرت وإن شئت ذبحت وظاهر الآية يدل على أنهم أمروا بالذبح وأنهم فعلوا ما يسمى ذبحاً والنحر وإن أجزأ عن الذبح فصورته مخالفة لصورة الذبح، فالظاهر يقتضي ما قلناه حتى لو نحروا ولا دليل يدل على قيامه مقام الذبح لكان لا يجزي.

البحث الثالث: اختلفوا في السبب الذي لأجله ما كادوا يذبحون، فعن بعضهم لأجل غلاء ثمنها وعن آخرين أنهم خافوا الشهرة والفضيحة، وعلى كلا الوجهين، فالاحجام عن المأمور به غير جائز.

أما قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَا ﴾فاعلم أن وقوع ذلك القتل لا بد وأن يكون متقدماً لأمره تعالى بالذبح. أما الإخبار عن وقوع ذلك القتل وعن أنه لا بد وأن يضرب القتيل ببعض تلك البقرة فلا يجب أن يكون متقدماً على الإخبار عن قصة البقرة، فقول من يقول: هذه القصة يجب أن تكون متقدمة في التلاوة على الأولى خطأ، لأن هذه القصة في نفسها يجب أن تكون متقدمة على الأول في الوجود، فأما التقدم في الذكر فغير واجب لأنه تارة يتقدم ذكر السبب على ذكر الحكم وأخرى على العكس من ذلك، فكأنه لما وقعت لهم تلك الواقعة أمرهم تعالى بذبح

البقرة فلما ذبحوها قال: وإذ قتلتم نفساً من قبل واختلفتم وتنازعتم فإني مظهر لكم القاتل الذي سترتموه بأن يضرب القتيل ببعض هذه البقرة المذبوحة، وذلك مستقيم. فإن قيل: هب أنه لا خلل في هذا النظم، ولكن النظم الآخر كان مستحسناً فما الفائدة في ترجيح هذا النظم؟ قلنا: إنما قدمت قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتيل لأنه لو عمل على عكسه لكانت قصة واحدة ولو كانت قصة واحدة لذهب الغرض من بينية التفريع.

أما قوله تعالى:﴿ فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَا ﴾ ففيه وجوه.أحدها: اختلفتم واختصمتم في شأنها لأن المتخاصمين يدرأ بعضهم بعضاً أي يدافعه ويزاحمه.وثانيها: «أدارأتم» ينفي كل واحد منكم القتل عن نفسه ويضيفه إلى غيره.وثالثها: دفع بعضكم بعضاً عن البراءة والتهمة، وجملة القول فيه أن الدرء هو الدفع. فالمتخاصمون إذا تخاصموا فقد دفع كل واحد منهم عن نفسه تلك التهمة، ودفع كل واحد منهم حجة صاحبه عن تلك الفعلة، ودفع كل واحد منهم حجة صاحبه في إسناد تلك التهمة إلى غيره وحجة صاحبه في براءته عنه، قال القفال: والكناية في (فيها) للنفس، أي فاختلفتم في النفس ويحتمل في القتلة لأن قوله:﴿ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا ﴾ يدل على المصدر.

أما قوله تعالى:﴿ وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴾ أي مظهر لا محالة ما كتمتم من أمر القتل. فإن قيل: كيف أعمل «مخرج» وهو في معنى المضي؟ قلنا: قد حكى ما كان مستقبلاً في وقت التدارء كما حكى الحاضر في قوله:﴿بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ﴾[الكهف: ١٨] وهذه الجملة اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه وهما «ادارأتم، فقلنا» ثم فيه مسائل:

المسألة الأولى: قالت المعتزلة قوله:﴿ وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴾ أي لا بد وأن يفعل ذلك وإنما حكم بأنه لا بد وأن يفعل ذلك، لأن الاختلاف والتنازع في باب القتل يكون سبباً للفتن والفساد والله لا يحب الفساد فلأجل هذا قال: لا بد وأن يزيل هذا الكتمان ليزول ذلك الفساد، فدل ذلك على أنه سبحانه لا يريد الفساد ولا يرضى به ولا يخلقه.

المسألة الثانية: الآية تدل على أنه تعالى عالم بجميع المعلومات وإلاّ لما قدر على إظهار ما كتموه.

المسألة الثالثة: تدل الآية على أن ما يسره العبد من خير أو شر ودام ذلك منه فإن الله سيظهره. قال (عليه الصلاة والسلام): (إن عبداً لو أطاع الله من وراء سبعين حجاباً لأظهر الله ذلك على ألسنة الناس) وكذلك المعصية. وروي أن الله تعالى أوحى إلى موسى (عليه السلام): «قل لبني إسرائيل يخفون لي أعمالهم وعلي أن أظهرها لهم».

المسألة الرابعة: دلت الآية على أنه يجوز ورود العام لإرادة الخاص لأن قوله: ﴿مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ يتناول كل المكتومات ثم إن الله تعالى أراد هذه الواقعة.

أما قوله تعالى:﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: المروي عن ابن عباس أن صاحب بقرة بني إسرائيل طلبها أربعين سنة حتى وجدها، ثم ذبحت إلاّ أن هذه الرواية على خلاف ظاهر القرآن لأن الفاء في قوله تعالى:﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾للتعقيب، وذلك يدل على أن قوله:﴿ ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾ حصل عقيب قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ﴾.

المسألة الثانية: الهاء في قوله تعالى:﴿ ٱضْرِبُوهُ ﴾ ضمير وهو إما أن يرجع إلى النفس وحينئذ يكون التذكير على تأويل الشخص والإنسان وإما إلى القتيل وهو الذي دل عليه قوله:﴿ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾.

المسألة الثالثة: يجوز أن يكون الله تعالى إنما أمر بذبح البقرة، لأنه تعلق بذبحها مصلحة لا تحصل إلاّ بذبحها ويجوز أن يكون الحال فيها وفي غيرها على السوية والأقرب هو الأول، لأنه لو قام غيرها مقامها لما وجبت على التعيين، بل على التخير بينها وبين غيرها وههنا سؤالان:

السؤال الأول: ما الفائدة في ضرب المقتول ببعض البقرة مع أن الله تعالى قادر على أن يحييه ابتداء؟ الجواب: الفائدة فيه لتكون الحجة أوكد وعن الحيلة أبعد فقد كان يجوز لملحد أن يوهم أن موسى (عليه السلام) إنما أحياه بضرب من السحر

والحيلة، فإنه إذا حيي عندما يضرب بقطعة من البقرة المذبوحة انتفت الشبهة في أنه لم يحي بشيء انتقل إليه من الجسم الذي ضرب به، إذا كان ذلك إنما حيي بفعل فعلوه هم، فدل ذلك على أن إعلام الأنبياء إنما يكون من عند الله لا بتمويه من العباد وأيضاً فتقديم القربان مما يعظم أمر القربان.

السؤال الثاني: هلا أمر بذبح غير البقرة، وأجابوا بأن الكلام في غيرها لو أمروا به كالكلام فيه، ثم ذكروا فيها فوائد، منها التقرب بالقربان الذي كانت العادة به جارية ولأن هذا القربان كان عندهم من أعظم القرابين ولما فيه من مزيد الثواب لتحمل الكلفة في تحصيل هذه البقرة على غلاء ثمنها، ولما فيه من حصول المال العظيم لمالك البقرة.

المسألة الرابعة: اختلفوا في أن ذلك البعض الذي ضربوا القتيل به ما هو؟ والأقرب أنهم كانوا مخيرين في أبعاض البقرة لأنهم أمروا بضرب القتيل ببعض البقرة وأي بعض من أبعاض البقرة ضربوا القتيل به، فإنهم كانوا ممتثلين لمقتضى قوله: ﴿ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَا﴾ والإتيان بالمأمور به يدل على الخروج عن العهدة على ما ثبت في أصول الفقه، وذلك يقتضي التخيير. واختلفوا في البعض الذي ضرب به القتيل فقيل: لسانها وقيل: فخذها اليمنى وقيل: ذنبها وقيل: العظم الذي يلى الغضروف وهو أصل الآذان، وقيل: البضعة بين الكتفين، ولا شك أن القرآن لا يدل عليه فإن ورد خبر صحيح قبل وإلا وجب السكوت عنه.

المسألة الخامسة: في الكلام محذوف والتقدير، فقلنا اضربوه ببعضها فضربوه ببعضها فحيي إلاّ أنه حذف ذلك لدلالة قوله تعالى:﴿كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ وعليه هو كقوله تعالى:﴿ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ﴾البقرة: ٦٠ أي فضرب فانفجرت، روي أنهم لما ضربوه قام بإذن الله وأوداجه تشخب دماً، وقال قتلني فلان، وفلان لابني عمه ثم سقط ميتاً: وقتلاً.

أما قوله تعالى:﴿كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: في هذه الآية وجهان: أحدهما: أن يكون إشارة إلى نفس ذلك

الميت. والثاني: أنه احتجاج في صحة الإعادة، ثم هذا الاحتجاج أهو على المشركين أو على غيرهم؟ فيه وجهان. الأول: قال الأصم: إنه على المشركين لأنه إن ظهر لهم بالتواتر أن هذا الإحياء قد كان على هذا الوجه علموا صحة الإعادة، وإن لم يظهر ذلك بالتواتر فإنه يكون داعية لهم إلى التفكر. قال القاضي: وهذا هو الأقرب لأنه تقدم منه تعالى ذكر الأمر بالضرب وأنه سبب إحياء ذلك الميت، ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ فجمع ﴿ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ ولو كان المراد ذلك القتيل لما جمع في القول فكأنه قال: دل بذلك على أن الإعادة كالابتداء في قدرته. الثاني: قال القفال: ظاهر الكلام يدل على أن الله تعالى قال لبني إسرائيل: إحياء الله تعالى لسائر الموتى يكون مثل هذا الإحياء الذي شاهدتم، لأنهم وإن كانوا مؤمنين بذلك إلاّ أنهم لم يؤمنوا به إلاّ من طريق الاستدلال ولم يشاهدوا شيئاً منه، فإذا شاهدوه اطمأنت قلوبهم وانتفت عنهم الشبهة التي لا يخلو منها المستدل، وقد قال إبراهيم (عليه السلام): ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ إلى قوله﴿لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي﴾البقرة: ٢٦٠فأحيا الله تعالى لبني إسرائيل القتيل عياناً، ثم قال لهم:﴿كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ أي كالذي أحياه في الدنيا يحيي في الآخرة من غير احتياج في ذلك الإيجاد إلى مادة ومدة ومثال وآلة.

المسألة الثانية: من الناس من استدل بقوله تعالى:﴿كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ على أن المقتول ميت وهو ضعيف لأنه تعالى قاس على إحياء ذلك القتيل إحياء الموتى، فلا يلزم من هذا كون القتيل ميتاً.

أما قوله تعالى:﴿وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ فلقائل أن يقول: إن ذلك كان آية واحدة فلم سميت بالآيات؟ والجواب: أنها تدل على وجود الصانع القادر على كل المقدورات. العالم بكل المعلومات، المختار في الإيجاد والإبداع، وعلى صدق موسى (عليه السلام)، وعلى براءة ساحة من لم يكن قاتلاً. وعلى تعين تلك التهمة على من باشر ذلك القتل، فهي وإن كانت آية واحدة إلاّ أنها لما دلت على هذه المدلولات الكثيرة لا جرم جرت مجرى الآيات الكثيرة.

أما قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ففيه بحثان:

الأول: أن كلمة «لعل» قد تقدم تفسيرها في قوله تعالى:﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

الثاني: أن القوم كانوا عقلاء قبل عرض هذه الآيات عليهم وإذا كان العقل حاصلاً امتنع أن يقال: إني عرضت عليك الآية الفلانية لكي تصير عاقلاً، فإذن لا يمكن إجراء الآية على ظاهرها بل لا بد من التأويل وهو أن يكون المراد لعلكم تعملون على قضية عقولكم وأن من قدر على إحياء نفس واحدة قدر على إحياء الأنفس كلها لعدم الاختصاص، حتى لا ينكروا البعث، هذا آخر الكلام في تفسير الآية.

*** الطباطبائي:**

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ إلخ، هذه قصة بقرة بني إسرائيل، وبها سميت السورة سورة البقرة. والأمر في بيان القرآن لهذه القصة عجيب فإن القصة فصل بعضها عن بعض حيث قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ إلى آخره ثم قال ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٔتُمْ فِيهَا﴾ ثم إنه أخرج فصل منها من وسطها وقدم أولاً ووضع صدر القصة وذيلها ثانيا، ثم إن الكلام كان مع بني إسرائيل في الآيات السابقة بنحوالخطاب فانتقل بالالتفات إلى الغيبة حيث قال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ ثم التفت إلى الخطاب ثانياً بقوله: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٔتُمْ فِيهَا﴾.

أما الإلتفات في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾، ففيه صرف الخطاب عن بني إسرائيل، وتوجيهه إلى النبي في شطر من القصة وهو أمر ذبح البقرة وتوصيفها ليكون كالمقدمة الموضحة للخطاب الذي سيخاطب به بنو إسرائيل بقوله:﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، الآيتان في سلك الخطابات السابقة فهذه الآيات الخمس من قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾، كالمعترضة في الكلام تبيّن

معنى الخطاب التالي مع ما فيها من الدلالة على سوء أدبهم وإيذائهم لرسولهم، برميه بفضول القول ولغو الكلام، مع ما فيه من تعنتهم وتشديدهم وإصرارهم في الاستيضاح والإستفهام المستلزم لنسبة الإبهام إلى الأوامر الإلهية وبيانات الأنبياء مع ما في، كلامهم من شوب الإهانة والاستخفاف الظاهر بمقام الربوبية فانظر إلى قول موسى (عليه السلام) لهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗ﴾ وقولهم: ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾، وقولهم ثانياً: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚ﴾، وقولهم ثالثاً: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا﴾، فأتوا في الجميع بلفظ ربك من غير أن يقولوا ربنا، ثم كرروا قولهم: ﴿مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا﴾، فادعوا التشابه بعد البيان، ولم يقولوا إن البقرة تشابهت علينا بل قالوا إن البقر تشابه علينا كأنهم يدعون أن جنس البقر متشابه ولا يؤثر هذا الأثر إلاّ بعض أفراد هذا النوع وهذا المقدار من البيان لا يجزي في تعيين الفرد المطلوب وتشخيصه، مع أن التأثير لله عزّ اسمه لا للبقرة، وقد أمرهم أن يذبحوا بقرة فأطلق القول ولم يقيده بقيد، وكان لهم أن يأخذوا بإطلاقه، ثم أنظر إلى قولهم لنبيهم: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗا﴾، المتضمن لرميه (عليه السلام) بالجهالة واللغو حتى نفاه عن نفسه بقوله: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾، وقولهم أخيراً بعد تمام البيان الإلهي ﴿ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّ﴾، الدال على نفي الحق عن البيانات السابقة المستلزم لنسبة الباطل إلى طرز البيان الإلهي والتبليغ النبوي.

وبالجملة فتقديم هذا الشطر من القصة لإبانة الأمر في الخطاب التالي كما ذكر مضافاً إلى نكتة أخرى، وهي أن قصة البقرة غير مذكورة في التوراة الموجودة عند اليهود اليوم فكان من الحري أن لا يخاطبوا بهذه القصة أصلاً أو يخاطبوا به بعد بيان ما لعبت به أيديهم من التحريف، فأعرض عن خطابهم أولاً بتوجيه الخطاب إلى النبي ثم بعد تثبيت الأصل، عاد إلى ما جرى عليه الكلام من خطابهم المتسلسل، نعم في هذا المورد من التوراة حكم لا يخلو عن دلالة ما على وقوع القصة وهاك عبارة التوراة.

قال في الفصل الحادي والعشرين من سفر تثنيه الإشتراع إذا وجد قتيل في الأرض التي يعطيك الرب إلهك لتمتلكها واقعاً في الحقل لا يعلم من قتله يخرج شيوخك وقضاتك ويقيسون إلى المدن التي حول القتيل فالمدينة القريبة من القتيل يأخذ شيوخ تلك المدينة عجلة من البقر لم يحرث عليها لم تجر بالغير وينحدر شيوخ تلك المدينة بالعجلة إلى واد دائم السيلان لم يحرث فيه ولم يزرع ويكسرون عنق العجلة في الوادي ثم يتقدم الكهنة بني لاوي لأنه إياهم اختار الرب إلهك ليخدموه ويباركوا بإسم الرب وحسب قولهم تكون كل خصومة وكل ضربة ويغسل جميع شيوخ تلك المدينة القريبين من القتيل أيديهم على العجلة المكسورة العنق في الوادي ويصرخون ويقولون أيدينا لم تسفك هذا الدم وأعيننا لم تبصر إغفر لشعبك إسرائيل الذي فديت يا رب ولا تجعل دم برئ في وسط شعبك إسرائيل فيغفر لهم الدم انتهى.

إذا عرفت هذا على طوله، علمت أن بيان هذه القصة على هذا النحو ليس من قبيل فصل لقصة، بل القصة مبينة على نحو الإجمال في الخطاب الذي في قوله ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا ﴾ إلخ وشطر من القصة مأتية بها ببيان تفصيلي في صورة قصة اخرى لنكتة دعت إليه.

فقوله تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ ﴾ خطاب للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو كلام في صورة قصة وانما هي مقدمة توضيحية للخطاب التالي لم يذكر معها السبب الباعث على هذا الأمر والغاية المقصودة منها بل أطلقت إطلاقاً ليتنبه بذلك نفس السامع وتقف موقف التجسس، وتنتشط إذا سمعت أصل القصة، ونالت الإرتباط بين الكلامين، ولذلك لما سمعت بنو إسرائيل قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ﴾ تعجبوا من ذلك ولم يحملوه إلاّ على أن نبي الله موسى يستهزئ بهم لعدم وجود رابطة عندهم بين ذبح البقرة وما يسألونه من فصل الخصومة والحصول على القاتل قالوا أتتخذنا هزواً وسخرية.

وانما قالوا ذلك لفقدهم روح الإطاعة والسمع واستقرار ملكة الاستكبار والعتوفيهم، وقولهم إنا لا نحوم حول التقليد المذموم، وإنما نؤمن بما نشاهده

ونراه كما قالوا لموسى: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾البقرة: ٥٥وإنما وقعوا فيما وقعوا من جهة استقلالهم في الحكم والقضاء فيما لهم ذلك، وفيما ليس لهم ذلك فحكموا بالمحسوس على المعقول فطالبوا معاينة الرب بالحس الباصر وقالوا: ﴿ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾الأعراف: ١٣٨، وزعموا أن نبيهم موسى مثلهم يتهوّس كتهوسهم، ويلعب كلعبهم، فرموه بالإستهزاء والسفه والجهالة حتى رد عليهم، وقال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين، وإنما استعاذ بالله ولم يخبر عن نفسه بأنه ليس يجاهل لأن ذلك منه (عليه السلام) أخذ بالعصمة الإلهية التي لا تتخلف لا الحكمة الخلقية التي ربما تتخلف.

وزعموا أن ليس للإنسان أن يقبل قولاً إلاّ عن دليل، وهذا حق لكنهم غلطوا في زعمهم أن كل حكم يجب العثور على دليله تفصيلاً ولا يكفي في ذلك الإجمال ومن أجل ذلك طالبوا تفصيل أوصاف البقرة لحكمهم أن نوع البقر ليس فيه خاصة الأحياء، فإن كان ولا بد فهو في فرد خاص منه يجب تعيينه بأوصاف كاملة البيان ولذلك ﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ﴾، وهذا تشديد منهم على أنفسهم من غير جهة فشدّد الله عليهم، وقال موسى: ﴿ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ ﴾، أي ليست بمسنة انقطعت ولادتها ولا بكر أي لم تلد عوان بين ذلك، والعوان من النساء والبهائم ما هو في منتصف السن أي واقعة في السن بين ما ذكر من الفارض والبكر، ثم ترحم عليهم ربهم فوعظهم أن لا يلحوا في السؤال، ولا يشددوا على أنفسهم ويقنعوا بما بين لهم فقال: ﴿ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴾، لكنهم لم يرتدعوا بذلك بل ﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ﴾، ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ ﴾ شديد الصفرة في صفاء لونها تسر الناظرين وتم بذلك وصف البقرة بياناً، واتضح أنها ما هي وما لونها وهم مع ذلك لم يرضوا به، وأعادوا كلامهم الأول، من غير تحجب وانقباض ﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾، فأجابهم ثانياً بتوضيح في ماهيتها ولونها و﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ ﴾ أي غير مذللة بالحرث والسقي تثير الأرض بالشيار ولا تسقي الحرث

فلما تم عليهم البيان ولم يجدوا ما يسألونه قالوا الآن جئت بالحق قول من يعترف بالحقيقة بالإلزام والحجة من غير أن يجد إلى الرد سبيلاً، فيعترف بالحق إضطراراً، ويعتذر عن المبادرة إلى الإنكار بأن القول لم يكن مبيناً من قبل، ولا بيناً تاماً. والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾.

قوله تعالى ﴿ وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَا ﴾، شروع في أصل القصة والتدارؤ هوالتدافع من الدرء بمعنى الدفع فقد كانوا قتلوا نفساً ـــ وكل طائفة منهم يدفع الدم عن نفسها إلى غيرها ـ وأراد الله سبحانه إظهار ما كتموه.

قوله تعالى: ﴿ فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَا ﴾، أول الضميرين راجع إلى النفس باعتبار أنه قتيل، وثانيهما إلى البقرة وقد قيل إن المراد بالقصة بيان أصل تشريع الحكم حتى ينطبق على الحكم المذكور في التورية الذي نقلناه، والمراد بإحياء الموتى العثور بوسيلة تشريع هذا الحكم على دم المقتول، نظير ما ذكره تعالى بقوله: ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ ﴾ البقرة: ١٧٩، من دون أن يكون هناك إحياء بنحو الإعجاز هذا، وأنت خبير بأن سياق الكلام وخاصة قوله تعالى: ﴿ فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾يأبى ذلك.

التعليق على ما مرّ من التفسير نقول

وأيضاً ولله الحمد، حيث جاء إجماع المفسرين تقريباً موحداً بخصوص شرح الآيات الكريمات، وتميز الرازي بشكل خاص فلله درّه، وأيضاً الطبرسي حيث ربط في الآيتين الأخيرتين التفسير ببعض المسائل الأصولية.